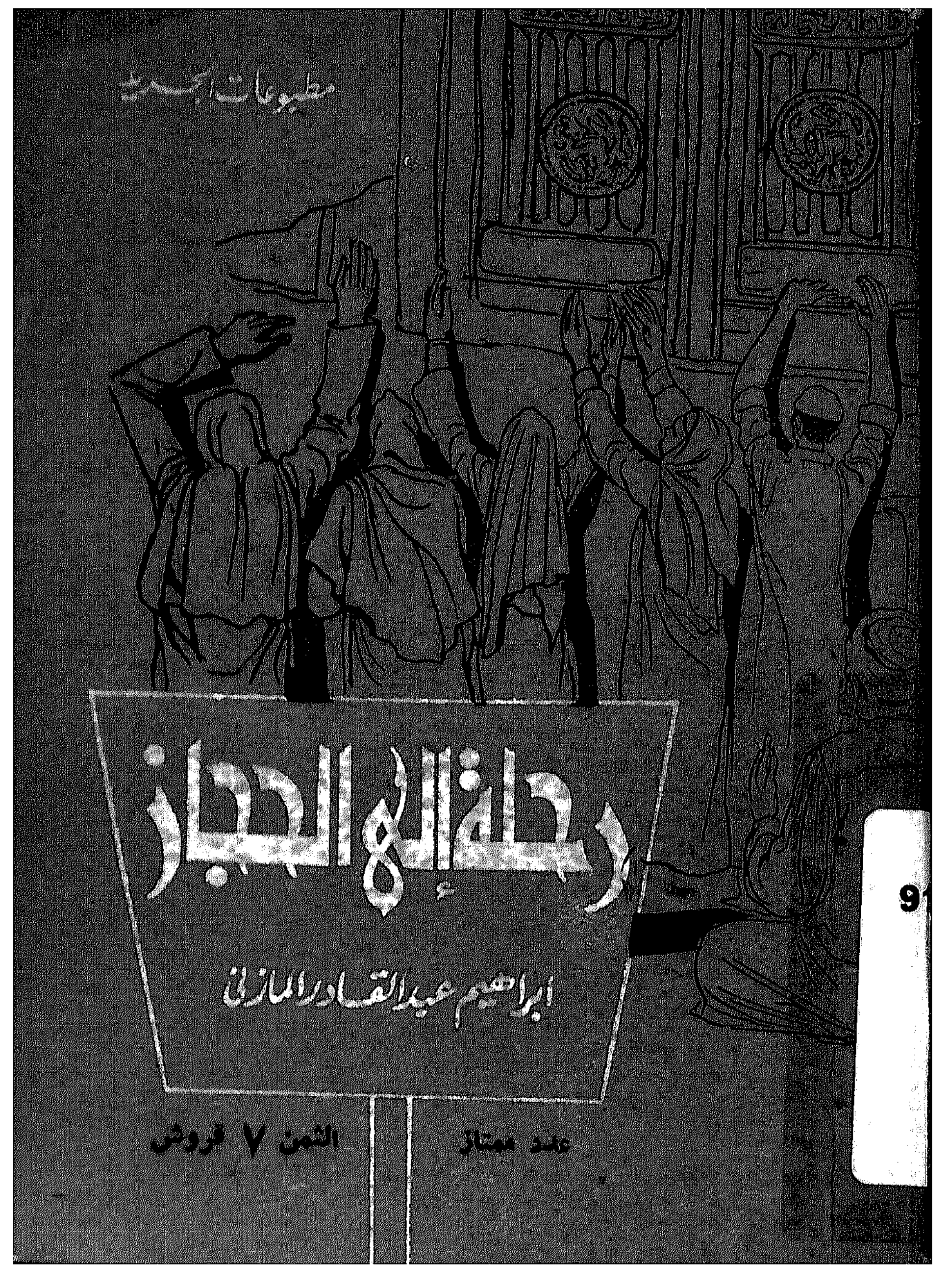

مطبوعات الجديد
رحلة إلى الحجاز
ابراهيم عبد القادر المازني
الثمن ٧ قروش
عدد ممتاز



مطبوعات الجديد

رئيس التحرير
دكتور رشاد رشدى

العدد الحادى والعشرون
نوفمبر ١٩٧٣

غلاف :

محمد قطب

الطبعة الثانية

١٩٧٣

رحلة إلى الحجاز

ابراهيم عبد القادر المازني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣



الإهـــداء

« الى التى تفرح لفرحى وتحـــزن لحزنى والتى أسىء
اليها فتعفو وأرهقها فتحتمل ، والتى لاتكون معى الا راضية
عنى مباهية بى داعية الى

الى أمى ...»

ابراهيم عبد القادر المازنى



في الطريق إلى ينبع

رأيت نفسى أتساءل ـ وأنا أصافح ربان السفينه واستفسر منه عن الجو ومايتنظر أن يكون ، والبحر وهل يرجى أن يكون لينا .

«ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التى سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها ؟ هل تكر على العالم بنهضة جديدة ؟ أودع الكر فقد تكون مسافة مابينها وبين العالم اطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا ، وسل هل في وسعها أن تشق طريقها الى منزلة من منازل الحياة العزيزة ؟»

ومن عجائب النفس الانسانية أنها تتسع لهذا الازدواج : هذا الربان أمامى اجاذبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جد الى هزل ، وأعرفه بهذا وذاك من اخوانى ؛ وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكثر شعابه ؛ ويذهب هو يصف لى ميناءى ينبع وجده وكيف

تكثر فى مدخليهما الصخور ، وأنا منصت مرهف الآذان لكل حرف ، ولسانى يجرى بالكلام مجاوبا أو ملاحظا أو مسائلا ، واذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيهـا ويأبى الا أن أعنى به والتفت اليه . ولعل للقلب فى أثناء ذلك التفاتة أخرى الى الأهل والاخوان والى ماخلف المرء وراءه من معاهد حياته ، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهى لفتة شاملة محيطة، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبى من البروز ، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه ، بلا بخس ولا وكس . على أن هذا ليس موضع الافاضة فى قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف الى كل شأن كأنها متخلية له ، فلنرجع الى ماكنا فيه .

لم أجب على سؤالى وان كان التفكير فيه قد شغلنى طول الطريق ، لأن كل ماأعرفه عن العرب فى حاضرهم مستفاد ممـا قرأت أو سمعت ، ولم أر موجبـا للتعجيل بالجزم وليس بينى وبين المعاينة الا أيام . غير أن هذا لم يعفنى من الحاح هذا الخاطر الذى ظلت النفس تواجهنى به وترفعه قبل عينى على صـور شـتى . فمرة يكون السؤال كما أوردته ، وتارة يكون «هل فى الأمة العربيـة مادة صالحة لما تتطلبه الحياة فى العصر الحاضر من الكفاح المر ؟

. وطورا يهتف الأمل «أن هـذه الأمـة تغالب طبيعة

بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لاتستطيع أن تكافح المصاعب التى تحفها بها الأحوال العارضة ؟»

وربما جنحت النفس الى اليأس كلما تصورت بعد ما بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التى أغذت السير قرونا وهم يحدون الابل ويقتتلون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . بل كان اليأس يخامرنى كلما تخيلت الصحراء الساحقة التى يصارعونها وكنت أقول لنفسى : «هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لها فى التاريخ مدنيتان عالميتان؟ ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى منها الا مايبقى من ألياف «القصب» الجافة بعد مصه أو اعتصاره ؟»

وهكذا الى غير نهاية ! فما لقينا من البحر مايصرفنى عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس الى مجرى آخر . ولقد كنا فى السفينة وكأننا فى بيوتنا لا على الماء ، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لاتمسه فلاموج ولا اهتزاز ولا دوار ، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلا ليردنا الى التهيب ، غير أن البحر خيب أملى فيه .

وقد فرحت فى أول الأمر بالفرصة التى اتاحت لى هذه الرحلة وقلت لنفسى ان المصريين يخرجون افواجا الى الأقطار الاخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم ، حتى ليخيل للمرء فى مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد

أزمعت أن تهاجر الى واد غير واديها ، وكنت فى صيف كل عام أخشى أن لا يبقى فى البلاد غيرى ، وأن لا يعمرها سواى ، فلما عرضت هذه المناسبة للسفر الى الحجاز فى الشتاء قلت : حسن : دقة بدقة والبادى أظلم ، لقد عمرت الوادى من قبل فلتعمره الأمة الآن ، ولتقم عنى بواجب الحراسة التى أرانى كأنما كنت موكلا بها ، فما أحسب أحدا أطاق أن يقيم كما أطقت ، لكأنما كنت كلبا حارسا لا انسانا له ديباجة تخلق ، وتستحق أن تتجدد .

وسرنى على الخصوص أن السفر الى الحجاز لا الى الغرب ، ذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت أنه يغزوها ، فلسنا نحتاج أن نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جدا ، ولنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق وصلتنا به أوثق وارتباطنا به أمتن . وما احسبنى ابالغ حين أقول ان مستقبل الشرق واحد وان تفاوتت خطى أبنائه . ومن الجهل ان نشيح بوجوهنا عنه ، ومن الخرق أن نتجاهله ومن البلادة أن ننسى اننا مرتبطون به وان خفيت الخيوط ، ومن الغفلة ان نتوهم ان الرحيل لا يكون نافعا الا الى الغرب ، وانه لا فائدة تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على احواله .

وعرفت اسماء رفاقى فاطرقت أفكر : هذا احمد زكى باشا احدهم وهو شيخ العروبة أولا أدرى ماذا يسمونه أو يسمى نفسه وهذا آخر من المجاهدين فى سورية ، وهذا ثالث كان له فى حركة الاستقلال السورى

دور هو أشبه بقصص السندباد البحرى «(١)» فماذا عسى أن أكون بينهم ؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك ؟ هل فى مقدورى حين افخر أن ادعى انى اكثر من جندى صغير ؟ ثم هؤلاء زملائى وليس بينهم الا من هو أنشط منى واجرأ .

واستعرت من زميل لى مبراة ، وملت الى الحاجز على ظهر السفينة وأرهفت أقلامى ، ثم لم أجد لى عملا بعد ذلك فأقمت حد المبراة على حديد الحاجز ورحت كأنى اقطع ، فسمعت قائلا يقول لى :

«رفقا بالسفينة ياصديقى ، او بمبراتك اذا كان امر السفينة لايعنيك !» فالتفت فاذا انجليزى فى مثل ثياب الربان .

فقلت له :

«المبراة عارية وقد آن أن أردها»

فابتسم وقال :

«بعد أن شحذتها ؟»

فسألته وأنا أشير الى رجل فى مقدمة الباخرة :

« من هذا الرجل ذو الوجه الأمرد والنظرة الوحشية ؟» .

---

(١) هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى من المجاهدين فى القضية العربية .

فقال : «هذا الكبتن ... لقد كان ضابطا فى البحرية البريطانية وابلى فى الحرب الكبرى بلاء حسنا ، وقد سرح وهو الآن يعمل فى هذه الباخرة» .

فتركته ، وسرت خطوات فرأيت أمامى سلما صعدت عليه فألفيت أمامى قوارب النجاة فدنوت من أولها ، وخطر لى ان امتع نفسى بالجلوس فيه ، فشرعت أرفع رجلى لأخطو الى جوفه واذا بيد على كتفى تجذبنى وصاحبها ــ أعنى صاحب اليد ــ يقول

«انى مضطر أن احملك على ترك هذا . واذا كنت تريد أن تعرف شيئا فأرجو أن تسألنى ...»

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعا الى حيث لاأعلم كأنما ناداه احد وان كنت لم أسمع صوتا ، فدنوت من خادم وسألته عنه من يكون ؟ فقال

«هذا الكبتن ... مساعد الربان»

فقلت : «هذا أكثر مما أطيق . اسمع . انك مصرى مثلى فاصدقنى . اذا أغمضت عينى وسرت فى هذه الباخرة ووضعت يدى على أول رجل أصطدم به فهل يمكن أن يتضح أنه ليس بكبتن ؟»

فضحك الخادم وهو من السويس وقال :

«لاأدرى ، ولكنى أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحظ فانه وراءك الآن وعلى مسافة مترين فقط» .

فانحدرت الى غـرفتي وانا اقول لنفسى : « ان السفينة التى لها رئيسان تغرق فكيف بواحدة عددت من (كباتنها) أربعة الى الآن ! اللهم لطفك !» وفترت رغبتى فى الطعام ، وكان نبيه بك المظمة يحرضنى عليه ويلح على أن أصيب منه قليلا ، فاعتذرت بالألم الذى سببته لى حقنتا الكوليرا والتيفوئيد ، وكتمت عنه وعن زملائى أن للسفينة مائة رئيس حتى لاأزعجهم .

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن تتصادم «ارادات» هؤلاء القباطنة أو الكباتن ، فذهب عنى بعض الروع وعاودنى شيء من الاطمئنان . واتفق أن سألنى بعض رفاقى :

«بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة ؟»

فقلت : «لاأدرى ، ولكنى أقدر أن سرعتها لاتتجاوز اثنى عشر ميلا بحريا فى الساعة » .

فصاح بى واحد :

«مهلا ! ان سرعتها خمسة أميال فقط !

قلت : «خمسة أميال ! ياللعار ! لو سرنا على أقدامنا لسبقناها !»

فعاد يؤكد الأمر ويقول انه استقى هذه الحقيقة من الكبتن فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت الباخرة

أسرع . وقلت لنفسى اذا كان البطء كل ماتؤدى اليه كثرتهم فلابأس .

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب ، لا هو صياح ولا هو استغاثة ، لأن فيه انتظاما ولأن فى الصوت تنغيما ، فاستويت قاعدا وارهفت أذنى فخيل الى أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة غريبة ، ثم تبينت لفظين هما : «الله أكبر !» ولكن اللسان الذى يعلو بهما كان اعوج ملتويا ، فعجبت ثم تذكرت أنها احدى سفن «البوستة الخديوية» وهى شركة انجليزية تسير بواخرها بين السويس والسودان جيئة وذهوبا ، وتنقل الحجاج – فيما تنقل – الى ينبع وجدة – وقد رأينا بعضهم فى الباخرة على غطاء مخزن البضاعة حيث يفرشون السجاجيد ويكدسون أمتعتهم ويحشرون أنفسهم بينها تحت سماء الله – وهذا هو مكان الدرجة الثالثة .

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت : ان الانجليز قوم يتوخون ان يتكيفوا على مقتضى الظروف روفق ماتتطلبه الاحوال وهذا الذى سمعته أذان أى دعوة الى الصلاة ، وليس مما يتنافى مع الشذوذ الانجليزى أن تكون الشركة قد عينت للأذان فى الباخرة واحدا من هؤلاء «الكباتن» الذين لاأدرى ماذا يصنعون جميعا فى سفينة صغيرة كهذه .

وسرنى واضحكنى أن المؤذن «كبتن» انجليزى ،

وقلت أشرك اخوانى فيما يفيده العلم بذلك من المتعة ، فعدوت الى سطح الباخرة حيث كنا نجتمع فالتقيت بواحد اقبلت عليه أفضى اليه بخبر هذه البدعة السكسونية . فضحك ، ولكن منى ، ثم أشفق أن يعرف زملائى زلتى فيركبنى الثقلاء منهم بالسخرية ، وأومأ فاذا تحت أنفي جماعة من العرب يصلون ؛ واذا صوت الامام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى .

وكانت سلوتنا الحديث والنظر الى البحر ، و «الطاولة» وكان بطلها ــ أعنى الطاولة ــ أحمد زكى باشا ، غلبنا جميعا وأقر لكل منا بأنه خير لاعب ، وفى زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة ، راعتنى منه ، وكان لنا كالوالد يحنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولايؤثر نفسه دوننا بملهاة ، ولايستبد برأى أو يصر على اقتراح جدا كان أو هزلا ، بل الرأى عنده مارأت الجماعة ، يتقبله مرتاحا وينزل على حكمه راضيا ولو كان هو مقتنعا بصواب مايذهب اليه ، وكان أعذب الجميع حديثا وأمتعهم مجلسا نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى ، فتعلقت بهما واثقلت عليهما بمحضرى ، ولم أدع لهما راحة ، ولم يبخلا على بشىء مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلم ، ولم يكن لهما منى مناص أو مهرب سوى البحر ، وهما لايزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبهما منهما

وأقوى رجاء فى الله وفى بلوغ الغاية القومية من مساعيهما من أن يفكرا في الانتحار فرارا منى ، لذلك توثقت بيننا العرى كارهين أو راضيين ، فلما بلغنا ينبع صرنا وكأن صداقتنا أقدم عهدا من الجبال .

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة «الكتابة» ـ وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسى المسمرة وأقبلوا على الورق والبطاقات يسودونها لما علموا أنهم مصبحون فى ينبع وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك «١» ـ الى أهلهم واخوانهم وصحفهم ، ويكفى أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة فى ذلك ، فليست الثؤباء وحدها هى التى تعدى ، ولا القرود دون خلق الله هى التى تنزع الى التقليد ولو أن القارىء رآنا فى تلك الساعة ونحن مكبون على الورق ذاهلون عن كل مافى الدنيا لكان أول مايخطر له أننا قد آلينا أن نصدر فى الباخرة الصحف التى نمثلها ، أو أن هناك امتحانا معقودا لنا .

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فتخطفناها حتى نفدت ! كما نفد ورق الخطابات . وتصور سبعة أو ثمانية يستنفدون كل مافى الباخرة من ورق وخطابات ، أليس هذا دليلا على الهمة والنشاط والخصب ؟ وأحسبنى مسئولا عن العدد الأكبر من هذه

---

(١) اتضح فيما بعد أن ابقاء الرسائل فى جيوبنا أسرع من ارسالها من ينبع أو جده .

الأوراق التى استهلكت ، فقد نازعتنى نفسى أن أكون متفرجا لا كاتبا ، وأن أمتع عينى بمناظر الوجوه المكبة على الورق وما يظهر عليها من دلائل الاجهاد — اجهاد القرائح الخصيبة — فلجأت الى الحيلة وقلت أكتب رسائلى بالجملة ، فجئت بورق الكربون ووضعته بين الخطابات ، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست أتفرج !

وكان أحدنا يكتب يوميات عن هذه الرحلة وكان يختصنى بهذا السر ، ولاأدرى متى كان يكتب يومياته ، فما رأيته قط خلا بنفسه أو بكر الى مخدعه ، وقال لى مرة :

«لقد صارت مذكراتى ضخمة . كتبت اليوم ست صفحات وكتبت البارحة سبعا ، وأول من أمس تسعا ، فما قولك ؟»

فقلت مستغربا : «كل هذا ؟ وأى شىء وجدته يستحق التسجيل ؟»

قال : «كل شىء . خطوط الطول والعرض ، ووجه القمر ، وأدوار الطاولة التى لعبتها وفى أيها كنت الغالب أو المغلوب ، والأسماك التى رأيناها فى البحر ، بعضها يطير على سطح الماء ؛ وبعضها يهاجم السفينة طلبا للقوت ، والبواخر التى مرت بنا فى الليل وحييناها والأمم التى هى تابعة لها — وعلى ذكر ذلك أسألك هل تعرف

لماذا لانرى باخرة فى النهار ؟ الا تعرف ؟ ـ وكم كـذبة كذبها ... فلان ... اليوم ، وحالة البحر والرياح ، وان كانت لاتتغير ولانكاد تختلف يوما عن يوم ، وهذا ممل ، اليس كذلك ؟ وكم صورة أخذها رياض وكم صورة اخذتها المدموازيل عايدة ؛ كل شىء ؛ كل شىء ، حتى لقد أفردت «الأكلة الصيادية» عدة صفحات ، انها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة وكانت لذيذة . والفول المدمس ! أوه . له وحده صفحتان . الا تراه جديرا بذلك ؟ مدهش . مدهش أن نأكل فولا مدمسا على الباخرة تالودى الانجليزية !»

فسألته بعد أن انقطع نفسه : «وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك ؟»

قال : «سأطبعها وانشرها : كم تظن انها تساوى ؟ أعنى كم تتوقع أن أربح منها ؟ »

قلت : «تساوى : تسارى اذا اعتبرنا عددالصفحات ووزنها قياسا على ماكتبت الى الآن مائة جنيه أو مائتين»

فصافحنى مسرورا وهو يقول «لقد قدرت لربحى مثل هذا ... تماما» .

فقلت مستدركا «انما أعنى ثمن الورق الذى تملؤه ... أما الربح فلاأدرى . ربما كان أكثر وقد يكون أقل» .

فلم يضعف أمله وقال «تمام . تمام . تقديرك على كل حال مضبوط» ومضى عنى .

ولما كنا عائدين من مكة سألته : «الى أين وصلت في مذكراتك ؟»

فطال وجهه وقال : «ياأخى الحق أقول لك ان كتابة المذكرات عمل مضن . ثم انى لاأجد الوقت . نحن في حركة دائمة فمتى اكتب ؟ على انى سجلت كل شيء في راسى . فان ذاكرتى قوية وأنا أذكر حتى الأحاديث بألفاظها ولو كان عمرها أعواما . فلاخوف . انتظر حتى نرجع ونطمئن» .

❊ ❊ ❊

وفى الساعة السادسة من صباح السبت (٤ يناير) أيقظنى أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطىء قد ظهر ، فقلت له وأنا أتميز غيظا انى لاأحفل بالشواطىء — ولو كانت شواطىء الجنة — فى الساعة السادسة صباحا ، فذهب عنى وأغمضت عينى ، ولكن غيره جاء ثم غيره ، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطىء لن تدع لى جفنا يغفى ، فقمت متثائبا متثاقلا ووقفت متكئا على الحاجز فلم أر شيئا فالتفت الى أول من أيقظنى وقلت بلهجة المعاتب :

«أين هذا الشاطىء الذى بدا لك ياسيدى ؟»

فقال : «هذا . الا تراه ؟ غريب . انى أستطيع أن اشير الى المكان الذى سترسو أمامه الباخرة . لابد أن يكون هذا» .

ومرت الساعات ونحن نروح ونجيء وهو فى مكانه لايتحول عنه ولاتتعب رجلاه ، وبدت ينبع ملفوفة فى الضباب ، حتى جبال رضوى التى تظهر من ورائها خلناها ضبابا من اختلاط السحب برؤوسها ، فاختلفنا وتراهنا ، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقربنا جدا من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذى أشار اليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده ، هو المقبرة .

ورست الباخرة ، فى المرفأ لا أمام المقبرة ، واقبل الصبيان يسبحون اليها كالسمك وينادوننا أن نلقى اليهم بالقروش ليلتقطوها فرحنا نرمى اليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغوصون وراءه ويتلقونه بأكفهم وهو يهبط فى جوف الماء قبل أن يبلغ القاع ، فمن فاز به دسه فى شدقه ، حتىانتفخت اشداقهم وصارت وجوههم مشوهة بشعة المنظر .

وركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد ابن عطاء والخضر والسنوسى ، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب

يسمونها «الكندنسة» وهى لفظة محرفة عن الكوندنسر ، فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها وكان عاملا عليها فى عهد الحسين لم تنحه الحكومة السعودية ترفعا منها عن حماقات العزل والتأمير ، وزرنا دار الحكومة وهى أبسط ماتكون : بضعة مكاتب فى الدور الأرضى ، وفى الدور الذى فوقه غرفتان احداهما للقائمقام وفيها مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر ، وفى الاخرى مكتبان صغيران . وبعد أن شربنا القهوة النجدية ثم «الشاهى» كما يسمون «الشاى» استأذنا وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى أن يخرج الامير والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق وهى حارة ضيقة مسقفة على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والاسماك والجراد ، وقد أكل منه زكى باشا ، ولم يكن فى الدكاكين احد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق غاصا بالأطفال يمشون وراءنا ويحفون بنا فى خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئا . فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟؟ فقيل لى انه لا خوف منهم لأنه ما من احد يجرؤ أن يسرق شيئا .

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من الصلاة فوقف رجل امام كوم من الكلأ وقطع من الحصير واعواد من الخشب يبيعها بالمزاد ، وكل ما أمامه لايساوى ريالا .

ولم أر امرأة ولا بنتا ، الا واحدة فى نحو السابعة من عمرها ملفوفة فى ملاءة قذرة وفى احدى أذنيها قرط من العقيق ، وقيل لى ان النساء لايخرجن من البيوت، والأهالى خليط من كل جنس وملة ، وسحنهم معرض للأمم الشرقية ، فمن زنجى الى جاوى ، ومن عربى الى مصرى ، ومن هندى الى فارسى ، ومن سورى الى صومالى ، وهكذا .

وزرنا الأمير - أى الحاكم - عبد العزيز بن معمر ، وهو شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد السيف ، والدار على الطراز الشرقى القديم الذى كان مألوفا فى مصر منذ أكثر من خمسين عاما ولا تزال بعض آثاره باقية فى الاحياء الوطنية التى لم تمتد اليها يد العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح ، وغرفة الاستقبال فى داره مفروشة ببساط احمر والكراسى (الخيزران) صفان على الجانبين ، وفى الصدر مصطبة مفروشة بالسجاد العجمى وعليها الوسائد لجلوسه وكان الأمير يلبس جلبابا من السكروتة فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء وعلى رأسه العقال الأسود والمسدس مشدود الى وسطه والسيف المذهب المقبض يتدلى من حمائله ، ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبى الباب من الداخل فى نفس الغرفة ، ويجلس الباقون من الحراس خارجها وهم جميعا مسلحون ، والسيوف

والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران فكأن الغرفة مخزن سلاح لا حجرة استقبال ٠

وفى ينبع بلدية، ومكتب تلغراف لاسلكى، ومدرسة اولية ابتدائية يديرها مصرى طبقا لمناهج التعليم المصرية وفيها نحو مائة وتسعين تلميذا متفاوتى الاسنان والأطوال ، متباينى الثياب مختلفى الوجوه . ومصلحة للصحة ٠٠ الخ ٠

وقد شعرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة فلا اجنبى هناك ولا نفوذ ولا سلطان الا لأبناء البلد وكل موظف حجازى حتى اللاسلكى عماله ومديره حجازيون ، وقد أبى زكى باشا الا أن يرى هؤلاء العمال وهم يبعثون بتحيتنا الى سمو الأمير فيصل فى مكة كأنما لم يكن يصدق ان لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا مايحسنه الأوربى من الاعمال الآلية على الأقل .

وودعنا الأمير بعد أن أخذت صورتنا معه وعدنا الى الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة ويشكرنا ، وبعث الينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه عوضا عن الغداء الذى لم نستطع أن نجيب دعوته اليه اذ كنا قد تغدينا فى الباخرة .

فحرنا ماذا نصنع بهذه الخراف ! وعقدنا مؤتمرا

للتشاور . فقال واحد نردها شاكرين ، ولكن هذا كان مستحيلا ، واقترح ثان أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة ، ولكن هذا كان رذا على كل حال ، وفيه فضلا عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها وقال ثالث ان فى الباخرة حجاجا فقراء فلنذبح الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم ، ففعلنا .

وهكذا كان كل اقتراح مولدا من الذى سبقه ، وانتج الخطأ فى آخر الأمر الصواب . ولا عجب ، فما من خاطر أو احساس الا وهو وليد خواطر اخرى واحساسات شتى ، وليس فى الدنيا الا آدم واحد بلا أبيه أو أم .

* * *

وفى ينبع وجدت « صندوق الدنيا » ، وكنت أحسبنى حططته عن عاتقى فى مصر ، وكان ظنى أنه يسعنى بعد ان سافرت أن أمشى خفيفا لايثقل كاهلى هذا الحمل ولايحنى ظهرى ثقله ، فاذا بى قد صرت كالأحدب لايدخل فى مقدوره أن يستوى قائما كغيره من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من اعوجاج الخلق وحدب الظهر وقال لى واحد :

«لقد قرأت صندوقك»

فغاظنى ذلك وان كان قد سرنى ، وقلت «سأضعك

فيه ان شاء الله بعد عودتى» فأقبل على يرجو منى ألا أفعل ، فقلت :

«على شرط»

قال : « ما هو ؟ »

قلت : «أن تعفينى انت واخوانك من ذكره والا حشرتكم فيه جميعا» .

قال وهو يضحك :

«ولكنه والله ممتع»

قلت : «وسيكون الجزء الثانى أمتع بوجودكم» فامتقع وجهه ، وأحسبه خاف أن أرسم له صورة تمسخه وتجعله أضحوكة فطمأنته واكدت له انى أمزح . فسألنى وقد سكنت نفسه :

«ولكن لماذا تكره أن يذكر لك ؟»

فقلت له : «ان الذى يضحكك منه هو الذى أبكانى واحسبنى معذورا اذا كنت أزهد فى كل مايذكرنى بسخر ماجرت به المقادير . فاذا كنت تفهم هذا فبها ولله الحمد ، والا فأمسك ودعنا نستمع الى الباشا وهو يتحدث عن العروبة ويذكر الجواد الذى أهداه اليه جلالة الملك عبد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو يطعمه أو يلجمه أو يسرجه ـ سله الم يخطر له أن يطعمه كنافة فى رمضان

سله أكان يأكل ـ أعنى الجواد ـ من المدود أم كان الباشا ـ يبسط له السماط ويمد له الخوان ؟» .

* * *

وفى ينبع عشرة آلاف نسمة وأقل من مائة جندى ، والحكومة كأبسط ماتكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير واحقر الأهالى ، وسلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة ، بل من الاحترام والحب والتعاون ، وآية ذلك أن الناس صريحون مع حكامهم وان الحكام لايبدو عليهم تكلف ، ولاتكون الصراحة مع الخوف والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذى ينضح به الوجه ولايخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المبتسمة مع القسوة والاستبداد . ولم اسمع فى المرتين اللتين زرت فيهما ينبع ، امرا يلقى ، او كلمة ملق ودهان تقال ، ولقد كان أمير ينبع يسر الى الرجل من حرسه ان يطلب القهوة أو «الشاهى» أو يدعو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق ، وكنت اراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة او كلمة سارة . ولم تأخذ عينى منظر قسوة واحدا ، وكثيرا ماكانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا ـ فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى فاطمة ـ وكان الذين يتولون ذلك الجند . ولكن باشارة يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك وقد عدت من ينبع الى الباخرة وانا احس انى بدأت أفهم ،

وقد زدت فهما لما زرت جــدة ومكة ، ذلك أن الرعيــة راضية وأن الحاكم والمحكوم متعاونان .

وقد اقتنعت ، وانا لاازال فى الباخرة قبل أن اصل الى جده أو أضع رجلى على رصيف مينائها ، بأن المرأة النجدية تعرف السفور ولاتعرف الحجاب ، وكان اقتناعى بالمشاهدة والمعاينة وليس بالسماع ، ورأيت من الحزم أن اكتم عن زملائى ورفقائى فى هذه الرحلة هذا السر الذى اهتديت اليه لأنفرد بالعلم به وأستأثر بفضل اكتشافه والوصول اليه ، وقلت لنفسى : ان الصحافة سبق ، ولن تكون لى مزية على اخوانى اذا عرفوا كل ما أعرف ، ومالى انا بهم ؟ أليست لهم عيون مثل مالى ؟

ونزلنا فى ينبع وجبنا طــرقاتها ومررنا بحوانيتها ورأينا ناسها ، وكنت أسمع زملائى يتحــدثون عن المرأة والحجاب المضروب عليها ويرددون ماســمعوا من انهــا لاتخرج ولاتظهر ولايراها غير زوجها وذوى قرابتها الأدنين فأبتسم ســاخرا وأهز رأسى هازئا متهكما وارد نفسى بجهد عن أن أصيح بهم :

«ياعميان ! ان نصف من ترون فى الطرقات نساء تحسبوهن رجالا !»

وقد رأى زملائى المســاكين جــدة ومكة ومابينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون أن النســاء النجــديات

محجبات ! مساكين ! لكم وددت أن أشــق لهم بالمبراة جفونهم المطبقة ليبصروا وكم نازعتنى النفس أن أخطبهم على ظهـــر الســـفينة ونحن راجعون ، وأن ألقى عليهم محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولــكن الأثرة غلبتنى ، وحب الذات كان أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبـــوا بعيون مفتوحة كمغمضة ، وكان احتمالى هـــذا الكتمان وقدرتى على الامساك على سر ماعلمت ، جهدا شاقا لم أكن الأقوى عليه لولا الارادة المصممة . والآن وقد امتحنت ارادتى وأيقنت أنى نجحت ؛ أرانى أســتحق أن أرفه عن نفسى بالافضاء وأن أرخى اعصابى المشـــدودة بالبوح بما أحسنت كتمانه .

لما صرنا أمام رابغ احرمت الباخرة ـ أعنى ركابهـا الذين ينوون أن يقصـــدوا الى مكة مباشرة فظهر بيننا فجأة رجل نجدى قيل لى انه أمير فى قومه وحوله حاشية كبيرة من أتباعه وعبيده ، وكلهم محرم ، والاحرام لايمنع أن يلبس المرء سلاحه ، فكانوا يحملون فوق ماأحرموا به المسدسات والخناجر واحزمة الخراطيش واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب ، فاختلطنا وصار عبيده وخدمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة ، وهم يقدمونها فى فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة ، أو رشفة ، تحتاج لكى تشربها أو تلحسها أو تنقلها الى فمك ، أن ترفع وجهك الى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها الى لســـانك ، حتى اذا فرغت دون أن تقع على

الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى اذا راقتك الحركة التى يكلفك اياها شربها والا هززت الفنجانة علامة الاكتفاء ، وقد سمعت ــ وصــدقت ــ ان القهوة النجدية تقوى عظام العنق . وقد سمعت أيضا ــ ولكنى لم أر هذا ــ أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهــم وقوف .

وكان معنا «رياض افندى شحاته» المصور المشهور فدعاهم الى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا فنادونى فأسرعت اليهم ووقفت حيث وجدت لى مكانا واذا برياض افندى يدعونى أن أتزحزح عن مكانى ويشير الى جارى فالتفت الى يمينى فلم يسعنى الا أن أتراجع بسرعة والا أن أقول :

«بردون مدام ! أعنى معذرة ياسيدتى ! لقدزاحمتك وأنا غافل عن وجودك فلاتؤاخذينى ! تفضلى» .

وتنحيت بعد هذه الخطبة التى لم ترق من سمعها من اخوانى فصاح بى واحد :

«ماذا تقول ؟ قف ياأخى هنا . نعم هنا واسكت» .

فهززت راسى آسفا مستغربا قلة ذوق هذا الزميل الذى ينقم منى تأدبى مع ســيدة . فســمعت رياض افندى يصيح بى .

«ماتهزش راسك ياأستاذ مازنى»

فحار الأستاذ المازنى بين رياض افندى وهذا الزميل الموبخ وقال ــ اى الأستاذ المازنى ــ لجاره الى يساره :

«أنا كنت أعتذر فوبخنى زميلى لاأدرى لماذا ؟ هل كان يليق أن أكتم الاعتذار لها بعد أن فطنت الى غلطتى ؟»

ففتح جارى عينيه جدا وقال بلهجة المستغرب

«ماذا تقول ؟ من تعنى ؟»

وهنا صاح رياض افندى

«ياأستاذ مازنى اعمل معروف اقف ساكت خلينا نخلص» .

فقلت «اما ان هذا لغريب ! وهل انا الذى اعطلك؟

الحق أقول انى صرت لاافهم» وايقنت أن رياض افندى غائر منى .

وقال واحد كان ورائى

«لابأس . أجل الفهم الى مابعد التصوير» .

فنظرت الى الأمير فرأيته يبتسم . وثنيت عينى الى جارتى الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق فوق جبينها الوضاء ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون «بالبرينتين» والى حور عينيها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل ، والى ديباجة وجهها الصافية وماء الشباب الذى

يترقرق فى وجنتيها ، والابتسامة الخفيفة المغرية التى تفتر عنها شفتاها الرقيقتان .

وأحسب عينى لم تتحول عنها ، واظننى ظهرت فى الصورة ناظرا اليها لا الى رياض افندى ، فما كدت التفت اليه حتى كان قد فرغ مما يريد فقلت لابأس ، وأقبلت على صاحبتي أكرر لها الاعتذار وهى لا تزيد عن الابتسام ولاتفتح فمها قط . حتى كدت أجن شوقا الىرؤية اسنانها التى لم أشك فى أنها من مفاتنها الكبرى .

واشرت الى فمى وقلت أستفزها الى الكلام .

«اليس لك لسان ؟ أأنت خرساء ! مسكينة ! يالسخر الاقدار !» .

فهزت رأسها وقالت شيئا لم أفهمه . فأعدت ماقلت ببطء شديد ووضوح تام ، فضحكت وهزت رأسها ثانية ، وتكلمت ، ولكنى لم أفهم ، فخطر لى أنها غير عربية ، وأنها لعلها فارسية أو افغانية وحرت بأى لسان أخاطبها ؛ ولحق بى فى هذه اللحظة زميل فجذبنى وهو يقول :

«ما هذا ياأخى ؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون تحت الشمس المحرقة ، وبعد أن تحضر يحلو لك الكلام والايماء . هذا شيء بارد والله !»

فقلت : «ليس هذا ذنبى فقد كنت أؤدى واجب الاعتذار ...»

فقاطعني قائلا «اعتذار ايه ياأخى ؟ لالا .. هــذا لايليق ! لقد شوتنا الشمس . ولن ننتظرك مرة أخرى».

فتركته وملت الى غيره وهمست فى أذنه

«ألا ترى هذه السيدة ؟ ألم يرعك جمالها ؟»

فقال : «سيدة ؟ اى سيدة ؟»

قلت : «أى سيدة ؟ هذه ياأعمى !»

واشرت اليها

فانفجر يقهقه وانا انظر اليه كالأبله ، ولما رأيت أن ليس لهذا الضحك آخر مضيت عنه الى غـرفتى فلحق بى فيها وهو يقول :

«سيدة ايه يامولانا ! هذا رجل»

فانتفضت واقفا وصحت به مغضبا

«رجل ؟ تقول انها رجل ؟ اانا أم أنت الأعمى ؟»

فعاد الى القهقهة ، وقعدت ، ثم قلت له

لقد كلمتها ووجهت اليها الخطاب بضمير المؤنث فلم تعترض فكيف تزعمها رجلا» ؟

قال : «المسألة بسيطة . لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح ، وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة» .

قلت : «صحيح . لقد حسبتها افغانية»

فابتسم وهو يقول «ليتك ترى هذا الذى حسبته امراة حين يمتطى صهوة الجواد ويركضه الى القتال ويرسل شعره المرجل وينفشه ! اذن لرأيت أمامك وحشا مرعبا يميت عدوه بنظرة قبل أن يدفن فى صدره حربته»

قلت : «والكحل ؟»

قال : «هذا سنة»

فلوحت بيدى ومضيت عنه

ظاهرة عجيبة جدا هذه : النجدى المشهور بوعورة الخلق فى القتال ، يكون فى السلم كما رأيته فى الحجاز : على حظ عظيم من رقة الحاشية والدماثة واللين والطراوة حتى ليستحيل عليك أن تصدق أن هذا الرجل الذى يكاد يسيل من اللين ، يحسن أن يركب جوادا او يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح ، وقد رأيناه يفعل ذلك كله فكأنما ركب الجواد الف عفريت ، ولاأكتم انا خفناه !



فى جدة

بحر بليد ــ هذا هو البحر الأحمر ــ بليد كالرجل الذى تعابثه اليوم فيضحك غدا . والبليد صحبته متعبة، ورفقته مشقة ، فان حسن الفكاهة ولذتها ــ كحسن الكراهة ــ فى تبادلها ، لا أن ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد . وقد ظللنا خمسة أيام نسبح ــ كالسلحفاة ــ على ظهر البحر ، وكانت السفن تمرق بجانبنا كالسهم ــ أو كالأرانب مادمنا نذكر السلاحف ، ونحن نتبطأ ونتلكأ واحسبنا كنا أيضا نتراجع ــ ونداعبه ونمازحه وندغدغه فى كل موضع ونناجيه ونناشده أن يتنبه ونسأله أن يتمطى ويشد أوصاله ويتحرك ، ولكن هيهات ! لم يشعر بنا البحر أو لم يحفلنا وابت له البلادة أن ينتبه لوجودنا الا بعد أن بارحنا ينبع ! بعد ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثاءب! فانكفأ بعضنا فوق بعض ، وصارت الرءوس فى مكان الأرجل ، واطلت المعدات من الحلوق وذهبت الكراسى تقعد علينا لا نحن عليها ، وانقلب اظهر مافينا وأبرز

أعضائنا ، اقدامنا فى الهواء فانتقمت بذلك من جور الرؤوس عليها وطول اغتصابها للمراكز الملحوظة .

ولم أر أنا شيئا من هذا ولكنهم حدثونى بما صنع البحر بهم ، فقد كنت نائما وكان لى أيضا غطيط عال يخفت صوت البحر على مازعموا ، فجاءنى زميل يقول

«البحر هائج اليوم»

فانتفضت قائما وقد فرحت وسرنى أن البحر أولانا التفاتا وجعلت أروح واجىء بقدر ما استطيع فى هذا الجحر الضيق الذى يسمونه حجرة النوم وارفع صوتى بقول ذلك البدوى الساذج .

والبحر صعب المراس جدا   لاجعلت حاجتى اليه !
اليس ماء ، ونحن طين ؟   فما عسى صبرنا عليه ؟

ولكن متى ياصاحبى فانى مازلت فيما أشعر على اليابسة ؟»

قال . «ألم تشعر به ؟»

قلت «ربما كنت قد حلمت ـ بل انا على التحقيق احلم بالبحر هائجا طاغيا عنيفا ، ولكن البلاء والداء العياء ياأخى انى أنسى فى الصباح مارأيت فى احلامى» .

فقال . «أوه . هذا كلام فارغ ! لقد كانت الباخرة فى الليل تلعب هكذا (وأخرج قلما من جيبه وامسك به من

وسطه وجعل يرفع طرفيه على التعاقب فكيف لم تشعر بدلك ؟ ان هذا غير ممكن !»

قلت . «عفوا . لقد فاتنى نصف عمرى على التحقيق وأخشى أن يضيع النصف الباقى ونحن عائدون ، ولكنى كنت نائما هكذا متعارضا على طول السفينة . فبينما كانت أقدامكم أنتم ترتفع فى الهواء ورؤوسكم تهبط الى حيث تستحق ، كنت أنا لاأشعر بأكثر من حركة التنفس ، أو بتقلب بسيط . آه ! لقد تذكرت الآن انى كنت أحلم بأنى اسبح فى الماء واخبط فيه بذراعى . صحيح . صحيح !»

فلم يطق صبرا ومضى عنى . فلبست ثيابى بسرعة وعدوت وراءه وقد تنبهت فى نفسى كل غرائز السوء ، فلما صرت على ظهر السفينة — أو مايسمونه ظهرها وان كان فى حبة قلبها — خطر لى انى لم ار أبدع من هذا الجو من قبل ، وانه لا عهد لى بمثل هذا التألق فى الشمس والجمال فى البحر . واى شىء فى الطبيعة أفتن من منظر الجمال الوسنان ! ونازعتنى النفس أن أعرب عن اعجابى بكل هذا الحسن فى السماء والارض — أعنى البحر — فرفعت صوتى أريد أن أغنى ، ولكنى لم أدر ماأقول فأقصرت .

وكنت انظر حولى فأرى رفاقى متشبثين بحديد الحواجز ، فدنوت من أحدهم وقلت :

«سبحان ربي القادر ! كيف بالله رددت طفلا لاتقوى على المشي وحدك ؟»

قال : «ألا ترى ؟»

قلت . «ماذا ؟»

قال . «ماذا ؟ الا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مسدد الي الشمس في كبد السماء !»

قلت . «معذرة ياصاحبي . لست أرى الا ذنبها يحاول أن يغاطس الأسماك ليصطادها لطعامنا ، ليس هذا من البحر ولكنه من الربان . من أين يطعمنا اذا لم يفعل ذلك ؟»

وهممت بأن أقول كلاما آخر أثبت به نظريتي ، ولكن زميلا غيره ألقى بنفسه بين ذراعي ، فاكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت في سرى بقول الشاعر .

« أشوقا ولما يمض لي غير ليلة ؟
فكيف اذا خب المطى بنا عشرا ؟»

ثم التفت اليه وأنا أرفعه عن صدرى الذى سكن اليه وقلت

«أسعد الله صباحك ! جو بديع»

فوضع كفه على معدته وهو يقول «آه بابطني !» وذهب يتخطر .

واشتاقوا جميعا الى معانقتى وانا واقف أمام الباب أتلقاهم بين ذراعى مسرورا واهش لهم وأقول للواحد بعد الآخر .

«هدىء روعك ! انى مقدر عواطفك نحوى ، ولكن لاداعى الى العجلة فان الوقت امامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة» .

فلايزيد على أن يضع كفه على بطنه ويقول . «آه يابطنى !»

فخطر لى أن بهم عضة جوع ؛ فلما تلقيت آخرهم — وكنت قد فطنت الى هذه الحقيقة — قلت له .

«نهارك سعيد . لقد كنت تريد أن تقول . .»

ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته . «آه يابطنى»

فعرفت انى مصيب فى احالة مظاهر شوقهم الى شخصى الضعيف على الجوع . على الرغم من تأكيد أحد الزملاء ان البحر هائج وأن موجه «دفين» .

❋ ❋ ❋

ولم نخف لرؤية جدة لما شارفناها ، ذلك ان الساعة كانت الحادية عشرة صباحا ، والخادم كان يعد المائدة للغداء قبل موعده ، فقلنا هذه بشرى ، وجلسنا اليها ،

وحضر الطعام فلم نبال جدة كيف تبدو ولم نكترث لمرفئها أين رست السفينة منه ، فقد أقبلنا على الصحاف «نأكل مالايحسب الحاسب» كأنما خفنا ألا نقع فى جدة على طعام، فرحنا ندخر مايكفى أياما ، وجعلنا نلتهم الشبابيط (السمك) والفراريج (الدجاج) بلامضغ مخافة أن يدركنا وفد مستقبل فيشاركنا ، وصح فينا قول ابن الرومى .

فكاه كالعصرين من دهره كلاهما فى شأنه دائب
ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة ارنبها ضاغب
تعاوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب

وصدق فينا المثل العامى (وقت البطون تضيع العقول) . فلما صعد الطبيب الى الباخرة ودخل علينا أدار عينه فينا فلم ير أحدا رفع رأسه فقال .

« ما شاء الله ! ماشاء الله ! الحمد لله على السلامة !» .

وكانت الأفواه فى شغل بما فيها فرددنا بأيدينا واستأنفنا العمل فقال .

«صحتكم طيبة والحمد لله» .

«مش بطالة : نحمد الله على كل حال» .

فقال «لعل البحر كان هادئا» .

فلم يسمع سوى صرير الأضراس ، فارتد مسرعا ، وأكبر الظن انه أنذر قومه :

«اكل يتامى مالهم كاسب» .

فقد خف الى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها — جاءوا ، كما أرجح ، لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافي ونغوص وراء الراسب ، ونعمل أضراسنا فى الجامد ، ونعب فى الذائب ، ولكنا عجلنا قبل مقدمهم وفرغنا من هذا الشأن قبل أن يضعوا رجلا على سلم الباخرة ، فلما صعدوا الينا ألفونا جلوسا الى المائدة ، ولكن المائدة لم يكن عليها شيء ، ولم يكن يبدو علينا أثر من آثار الغارة التى شهدها الطبيب ووصفها لهم على التحقيق ، فنهضنا لاستقبالهم فى وقار وأبهة ورحبنا بهم وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذى سمعنا به ، وهم يجسوننا بعيونهم ويستدرجوننا ، ولكن هيهات ! فانخدعوا وشكوا فيما رواه الطبيب لهم .

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحاح . وامطرتهم كما لم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم . فقلت : «أعوذ بالله» .

فقال أحدهم : «بل حمدا لله وشكرا» .

واستبشروا بنا وتفاءلوا خيرا بقدومنا ، وأنساهم السرور بالمطر هول ماسمعوا عن كراتنا على الطعام ، وأشرقت وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم . وانحدرنا الى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة

وكان جاري في الزورق اميرا نجديا محرما وفي يمينه بندقية ، فلم ارتح الى جيرتها وقربها من صدغي ، فقلت له فجأة :

«هذا فلان يسلم عليك»

فاضطر ان ينقل البندقية الى يسراه ليصافح صاحبي ولصقت به حتى لاادع مكانا تعود اليه اذا فكر في تحويلها الى حيث كانت .

ولو انالزورق سار فيخط مستقيم الى «الرصيف» لبلغناه في ثلاث دقائق ، ولكنه اضطر ان يدور بنا حول الميناء فقطعنا المسافة في خمس وعشرين دقيقة ، لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التي تقطع الحديد كالسيف . وقد فكرت الحكومة في اصلاح الميناء، فخطر لها على ماعلمت احد أمرين ان تطهرها وتعمقها ، وهذا باهظ التكاليف ، او أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة . وهناك رأي ثالث سمعت به ولاادري الى اي حد ينظرون اليه على انه اقتراح جدي ، وهو أن تبنى الى جوار جدة مدينة جديدة على البحر يكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور ، فان انشاء مدينة جديدة أيسر واقل نفقة وتعبا من اصلاح مدينة قديمة بهدمها شيئا فشيئا واقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلا عن اصلاح الميناء وهو وحده مشكل . وكان يستقبلنا على الرصيف قائمقام جدة الشيخ عبد الله رضا

الزينلى ولفيف من الأعيان ؛ وسيأتى الكلام عليه فيما بعد
فصعد بنا الى بنـــاء فيبه موظفو الميناء وجلس معنا فى
الشرفة الى أن قرب الزورق الثانى فاعتـذر وخف الى
استقباله . وتركنا مع المستر فيلبى وحقى افندى سكرتير
القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعا
حديث الا هذا المطر العجيب الذى سبقنا وكانت تحيتهم
لنا «جئتم بالغيث» . ولهم العذر ، فان بلادهم صحراء
جرداء ليس فيها نهر أو جـدول واحـد ، واعتمادهم فى
معايشهم على المطر والآبار ، فاما المطر فلا سلطان لهم
عليه . وأمره بيد الله واما الآبار فقد كان عـددها كبيرا
وكانت العناية بها شديدة ، ولكن الاتراك لما اضطروا الى
الانسحاب من بلادهم فى ابان الحرب العظمى ، خـربوا
أكثرها حتى لخفيت معالم عدد ليس بالقليل منها ، وعلى
أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد ، لأنها تجف
وتنشف ، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية فى الآبار
الارتوازية وفى استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من
جوف الارض ، واستوردت عددا منها واتخذتها بالفعل فى
المدينة ومكة ، وهذا خير مايسعها الى الآن ، مع العناية
بالعيون وتعهدها بالاصلاح .

وليس فى جدة فنادق ينزل فيها القاصدون اليها ؛
وانما ينزل الناس فى بيوت الأهالى ، فمن شاء استأجر
منزلا بأسره ، ومن كان لايسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة ،
على مثال «البنسيون» فى مصر مع فروق طبيعية . أمـا

نحن فكنا ضيوفا على الحكومة ، وكان العزم أن ينزلونا جميعا فى بيت واحد ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسمونا ثلاث فرق : واحدة فى بيت الشيخ محمد نصيف وهو من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة هى أكبر مثيلاتها فى الحجاز ، وفى داره ينزل على ماسمعنا جلالة الملك عبد العزيز حين يكون فى جدة ، والفرقة الثانية فى بيت الشيخ الفضل ، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة ، والباقون ستة كان من حسن حظى انى أحدهم ، نزلوا فى دار حسين افندى العوينى ، وهو شاب سورى الأصل نزح الى جدة لاسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة ، وسيجىء عليه كلام .

ولم نكد نستقر فى بيوتنا حتى قيل لنا : الى بيت القائمقام ؛ فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التى أفردت لنا ، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة ، وأقول نخوض وأنا أعنى ماأقول ، فقد خيل الى أنى فى البندقية وأننا أحوج الى القوارب والزوارق — أو الجوندولا — منا الى السيارات . وكانت العجلات تغوص فى الماء الى النصف . واشد ماعجبت حين نظرت فاذا سائق السيارة صبى لايتجاوز الثانية عشرة من عمره . فخفت أن يقلبنا فى الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة . ولكنه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيتجنب الحفر ويتقى أن يرجنا . هذا على أن رأسه لم يكن ظاهرا لنا لصغر جسمه ، فلا أدرى

كيف كان يبصر الطريق ، وكأنى به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه . وكان بارعا فى محاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط ، فلم يسعنى الا أن أسأله :

« هل تعرف الطريق الى مكة ؟ »

فقال : « أى نعم . متى تذهبون ان شاء الله ! »

قلت : « وفصيح أيضا ! » ورقص قلبى اعجابا بمهارته وذلاقة لسانه وحدثتنى النفس أن أخطف ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم فى حقيبتى وأعود بهم الى مصر ، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم .

واستقبلنا القائمقام على باب داره . وتلكأت أدير عينى فى البيت من الخارج فارتد الى وتناول ذراعى ومضى يصعد بى السلم ، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها ، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين ، ومع ذلك كان يثب على السلالم وأنا أرفع نفسى بجهد واضح ؛ وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق ، لأن الدرجات عالية جدا ، والبعض أعلى من بعض واضيق ، وبعضها طولى أو أقل قليلا — الى أنفى ، وقد قلت وأنا ألهث بعد أن بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال: لقد نجحت فى الصعود ، ففى وسعى الآن أن أشترك فى الألعاب الأولمبية . ولم أكن أدرى الى تلك الساعة ان الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثرونه للسلالم .

وان النازل اذا لم يحذر خليق أن يهبطها مدحرجا عليها .
وقد وجدت بالتجربة أن آمن طريقة للصعود هى الزحف على اليدين والرجلين .

واستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد ، وتعدد السلالم ، فقد تكون صاعدا فى وديعة الله وحفظه ، واذا أمامك سلمان يذهب كل منهما فى ناحية فلا تدرى أيهما تأخذ : هذا أو ذاك ؟ وخطر لى فى أول الأمر ان سلما يؤدى الى حجرات الرجال ، وان الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى أيضا أن الاكثار من السلالم المضلة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثرا من أيام القلق وعدم الاطمئنان ، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم فلا يبعد أن يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ليتسنى لهم أن يجدوا لهم ولذويهم مخرجا او مهربا اذا اقتحم عليهم الدار عدو ، أو لعل الخاطر الأول هو الأصح فما أدرى ولا وجدت من يدرى . ومهما يكن من ذلك فان الدار هناك داران على الحقيقة ، وهى تبتدىء واحدة ثم تتشعب وتتعدد ولا بد لهذا من حكمة خفيت على . أما السلالم فلا حكمة لارتفاع درجاتها الى هذا الحد المرهق الا أن تكون حكمة التزهيد فى مكابدتها مرة ثانية . وما أكثر ما كان يخيل الى ، اذ تنزل من أحد البيوت ، اننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه ، حتى خطر لى أن ارسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين .

وبيت القائمقام انموذج حسن لغيره من الدور الذى رأيناها مع تفاوت بينها فى السعة ، وطرازها جميعا شرقى عتيق ، وأقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة فى أحيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش . وللبيت بوابة تفتح وتغلق — وتغلق أكثر مما تفتح — وفيها باب صغير يسمونه فى مصر « الخوخة » ثم الفناء فالسلم الذى وصفناه لك ، ثم طبقات يغلب أن تكون اثنتين أو ثلاثا ، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا ، وغرف المائدة فى التى تحتها ، وقد يجتمعان فى طبقة واحدة فتفرد الأخرى للنوم ، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم ، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم عن الخيلاء والذى هو أشبه «بالاعلان» ولا تلك الكزازة التى تقبض النفس وتصد القلب . وكرم العربى ليس ككرم سواه فهو يكرمك ويبذل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق ما فى مقدوره ، ثم كأن الذى يصنع هذا سواه ، من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر . وقد كنت كلما دخلت بيتا يختلط على الأمر ، فأحسبه بيت رجل آخر غير الذى أعرف أننا مدعوون عنده ، ذلك أن مضيفك لا يثقل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه أو يؤكد وجوده ؛ ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن حريتك فى حديثك وجلستك وفيما تشتهى نفسك ، غير محدودة ، وكان القائمقام على سنه وتقدمه وسمته

وأبهته يخف الى «الشيشة» ويجثو حيالها ليصلحها أو يصنع فيها مالا أدرى فلست من هواتها ، وكان الواحد منا يهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيها له عن هذه الخدمة ، ولكن شيئا فى عينيه كان يقعد بنا ويغلنا عن الحركة . ولم أر فى حياتى وجها ناطقا بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب الذى يريد أن يفيض على العالم كوجه هذا الرجل ، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره ، فلما قال لنا المستر فيلبى . ان القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنا نعرف هذا من قبل . وقد كان قائمقام فى عهد الحسين وابنه على المزولين، فلما جاء ابن سعود أقره فى منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لا معنى لهما ولا دافع اليهما سوى الهوى ، وليس كل ما يروع المرء من القائمقام دماثته وسجاحة خلقه ، فان نشاطه وحيويته شيء عجيب ، لا لمن كان فى مثل سنه العالية بل لأى انسان فى أى سن ، ثم هو الى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها ؛ عارف بنياتها ومساعيها لطيف الحديث حلو المحضر ، يزيده وقارا قليل من الصمم ، وسنه أبدا ضاحكة وعينه براقة ، فما أشوقنى الآن أراه وهو ثائر الغضب .

وكان قد أعدلنا غداء ولكنا قلبناه عشاء فقيل « حسن . الساعة الأولى اذا »

فملت الى جارى وقلت .

« سنموت هنا جوعا »

فقال بلهجة الفزع . « كيف ؟ لماذا ؟ »

قلت : « ألم تسمع ؟ العشاء الساعة الأولى . نحن الآن فى الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتى عشرة ساعة أو اكثر حتى نأكل مرة أخرى . هذا صيام ولسنا فى رمضان وأنا محتج »

قال : « مهلا مهلا ؟ انها الساعة الأولى بالحساب الشرقى أى بعد المغرب بساعة » .

فاقترح واحد أن نصلح ساعاتنا وأن نجريها على الحساب الشرقى ، فسألته كيف نفعل ؟

قال : « تعتبر ان الشمس تغيب الساعة السادسة ـ صيفا أو شتاء . هكذا يفعلون هنا . المغيب الساعة السادسة (افرنجية) بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فاجر حسابك » .

فحرت الآن الشمس تغرب فى الوقت الذى تشاء ، لا فى الساعة السادسة كما يريدها أهل الحجاز ، وكانت ونحن هناك تستحسن أن تغيب فيما بين الخامسة والسادسة ، وهى فى الصيف تتلكأ أحيانا الى السابعة فلم أدر ماذا أصنع ؟ أتكون الشمس غاربة وأقول أنا ـ مجاراة لساعات الحجاز ـ انها لا تزال طالعة ؟ ثم كيف

أرفق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعينى ؟ الحق ان هذه كانت عقدة .

ولما صرنا فى بيوتنا قلنا نزور القنصلية ، ونؤدى واجبنا ونحيى بلادنا فيها ، وكان المطر قد عاد ينهمر . فسألنا حسين أفندى العوينى « هل القنصلية بعيدة من هنا ؟ »

قال : « لا .. (ممطوطة) ليست بعيدة ولكن ولكن المطر شديد والطريق أوحال ·

وقام الى التليفون ــ او الهاتف كما يسمونه احيانا ــ ليدعو السيارات لتقلنا الى القنصلية وليس للتليفونات أو للهواتف أرقام تتميز بها بل عليك ان تدق الجرس فيجيبك « المركز » ــ وهو يقابل عندنا السنترال ــ فتطلب منه ان يصل ما بينك وبين فلان فى بيته او دكانه او مكتبه او عيادته ــ كما تشاء ويبطىء عليك العامل فتناديه : « يا فلان ماذا جرى ؟ اعطنى بيت فلان واصنع معروفا » ذلك انك تعرف عامل التليفون ــ لا عاملته ــ كما يعرفك . وكان المطر قد افسد أسلاك التليفون وعطل المخابرات ، فوقف حسين افندى العوينى ساعة يعالج الكلام ــ ساعة كاملة بلا ملل أو ضجر ومن غير ان يفكر لحظة فى الجلوس أو الاستراحة .

واخيرا بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها وصاح حسين افندى بالسائقين .

« الى القنصلية المصرية » .

فدارت السيارات وتحولت أمام البيت ، ثم جرت أمتارا ووقفت .

وقيل . « انزلوا ! تفضلوا ! » .

قلت . « ماذا ؟ هل أصاب السيارات عطب أو تلف » ؟ .

قالوا : « بل وصلنا ! »

وصلنا ؟ نعم . فما كان بين البيت والقنصليه التى ركبنا اليها بعد لأى ، سوى عشرة امتار !

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (أفرنجى) « الآن فانهضوا الى العشاء فى بيت القائمقام » .

فقيل . بل لا يزال الوقت فسيحا ولم تستوف الساعة الأولى دقائقها قلت . ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تماما .

قالوا . كلا لم تغرب الا منذ نصف ساعة .

فأسلمت أمرى لله ولساعات الحجاز التى لا تعبأ بنهار أو ليل والتى يجرى الزمن على وجهها ما لا يجرى فى بلادنا على وجوه ساعاتنا .

وليس فى نيتى ان أصف كل وليمة حضرتها أو دار

دخلتها فان هذا لا آخر له ، فقد كنا نتغذى فى بيت ونتناول الشـــاى فى بيت والعشاء فى ثالث ، وربما تغدينا فى جدة وتعشينا فى مكة ، أو بالعكس . ولكنى سأذكر القليل الذى يدل على الكثير وينبىء عنه . فقد سمعت ان فريقا من المصريين لا يصدقون ان أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة فهؤلاء أقـول : ان الحجاز ليس مجهلا من مجاهل آسيا أو افريقيا ، وانه وطن الاسلام واليه يحج المســـلمون من أقاصى الأرض وأدانيها وانه بلاد متحضرة سوى انها فقيرة ، والفقر لا يمنع الاناقة ولا يحول دون التهـذيب ، ومن الغرور الذى لا يشرف صاحبه ان يتصور المرء ان الحجاز ، لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مصيفا أو مشتى للمترفين منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهى ، يجب من أجل ذلك أن يكون مســـتوحشا وعلى الفطرة الأولى . وليس فى الحجاز فنادق أو مطاعم عامة ، ولكنا دعينـــا فى كل مكان حتى فى قلب الصحراء وتحت الخيام ــ الى موائد على الطريقة الغربية عليها من الآكال ما يندر ان تقع عليه العين أو يذوقه اللسان حتى فى مصر المتحضرة .

* * *

وهم لا يراعون فى الجلوس الى الموائد ترتيبا معينا، وكانوا معنا على الأقل احذق وادق مجاملة من ان يتوخوا ترتيبا ، فكان من شاء يجلس حيث يشاء ، حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بايثار .

والقوم فى الحجاز لا يأكلون سوى مرتين فى الأربع والعشرين ساعة : مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الرابعة أو الخامسة . وأحسب أن جو البلاد هو الذى اقتضى هذا التخفيف ، ولكنهم توخوا مثل عاداتنا فى مصر من أجلنا . وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا .

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الأسلوبين العربى والتركى . وقد يحدث أن يقدم لك بعد بضعة ألوان طعام حلو فتحسب أنك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المعدة بألوان عدة لا آخر لها واذا بهم بعد الحلوى يكرون الى اللحوم والخضر وما الى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا فى مصر فى الأعراس على الطريقة التركية القديمة .

واحب أن اعين القارىء على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيها . فأقول ان الطرق غير مرصوفة كما هى فى مصر ولكنها نظيفة على الجملة ، وقد أصارها المطر بركا وبحيرات ، وهو مطر ملأ صهاريج الثغر كلها ، ومن بين هذه الصهاريج واحد سعته - بحسابهم - مائتان وأربعون ألف « صفيحة » فاذا اعتبرت أن « القربة » تعادل اربع « صفائح » كانت سعة الصهريج ستين ألف قربة ، وقد قيل لى ان الماء الذى فى الصهاريج يكفى موسم الحج ، وانما ذكرت الصهاريج ومثلت لسعتها ليتسنى للقارىء أن يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع ،

فقد هدم بيوتا وقوض سقف بعض الأسواق ، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه والبنى هناك ضعيفة ، وقد قضينا الليلة الأولى في جدة .فأصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفون لأوحال ، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة . واحسب انهم ضاعفوا الهمة من اجلنا ، ولكنه نشاط على كل حال .

* * *

والأغنياء هناك لا يدعون الفقر ولا يكتمون مالهم وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ والتجارة سوقها رابحة مع الغرب والشرق . والأحاديث صريحة والألسنة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان ، وقد كان الناس على ما علمت في العهد السابق يخفون أموالهم ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز أو الاقتراض الذى هو فى حكم الاغتصاب والمصادرة ، أما الآن فيقول لى بعض الأصدقاء : ان الحكومة فى آخر العام قد تقفز خزائنها فتحتاج الى المال فتقترض من الأعيان حتى اذا جاء موسم الحج ردت اليهم ما اقرضوها بلا ربا .

وقد سألنا — فى طريقنا الى مكة — سائق السيارة وهو شاب حدثنا انه كان احد افراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين ، عن الفرق بين العهدين فكان جوابه

ان الأمن مستتب على أحسن حال وانه ما من احد يجرؤ ان يسرق أو يمد يده الى شيء فى الطريق .

فقلنا له : وأى العهدين خير .

فقال : « لكل زمان دولة ورجال » .

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله عما يعنى .



بين جدة ومكة

الأرض – في جدة – دائرة ، هذه حقيقة لم يسعني ، بعد يوم واحد ، الا إن أسلم بها واقطع بصحتها . وقد تكون الأرض هناك كروية أيضا – أو كرية ، فما أدرى أيهما الذي لا غبار عليه – بل هي كروية أو كرية في بعض المواضع ولا سيما في الشوارع ولها محاور حقيقية لا خيالية وان كانت لا تدور عليها ، ولكنها دائرة على التحقيق ؛ اذا كان هناك شك في كرويتها ، على الأقل كلها . وما أسرع ما فطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة فقد كنا مدعوين الى الشاي في وزارة الخارجية ، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أر السيارات ، فرددت البصر الي التليفون فاذا هو لا يزال في مكانه ، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضرا ، والتليفون في الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا ، ويحتاج الي معارف لم يتسع الوقت للاحاطة بها ، وكان الخادم قريبا ولكني استحييت أن أطلب معونته لئلا يتوهمنا بعض الهمج من افريقيا فسألت الله العون

ومضيت الى التليفون ودققت الجرس مرة ، فلم يجبنى احد ، فدققته ثانية فلم يعبأ بى مخلوق ، فهززت « الشنكل » وانا يائس ، اقول لنفسى أن من لا يحفل الجرس اولى به الا يكترث « للشنكل » وعاودت الدق والهز مرات ، ثم وضعت السماعة وجلست الى جانبه .

فقال لى أحد الحاضرين :

« لم سكت ؟ دق له ! »

قلت : «اأظل أدق الى المغرب ؟»

قال : « لا ياسيدى . دق الجرس وناده ! »

فراقنى هذا ونهضت مرة أخرى وعدت الى الجرس أدقه وأقول :

« يا أخانا ! يا حبيبى ! يا سيدى ونور عينى وتاج راسى ! »

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة ، فقلت اخاطبه بالعامية لعله لها أفهم .

« يا اخينا ! انت يا شيخ انت ! ياللى جوه ! نبحت حسى ووجعت قلبى . رد يا اخى بقا ، الله يقطعك ! » .

فلم تنفع هذه الرقية ، وهممت بالقعود مرة اخرى فقال صاحبى :

« لالالا . ناده باسمه يا أخى ! » .

قلت : « حسن . وهل مفروض فى المصرى الذى يأتى الى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون ؟ لا بأس ! » ووضعت فمى على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من الأسماء لعل واحدا منها يوافق الصحيح .

«يامحمد . يا ابا بكر . ياعمر . ياعثمان . ياعلى . يامعاوية . (لزملائى : يظهر انه أعجمى) ياناصر خان . ياأزدشير . ياشتربة . أنطق قبحك الله ! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد اطار هذا اللعين محفوظى ؟ لابأس) يابطليموس ..»

وهنا قاطعنى صاحبى وانتزع السماعة منى ووقف يقول

«يامركز .. يامركز ..»

فسألته «هل هذا اسمه ؟»

فلم يعبأ بى ومضى يقول .

«أجول لك . يامركز . أعطنى القناعة .. نعم القناعة . رجاء» فوصله بشركة القناعة للسيارات .

ولكنى لم أركب سيارة ، لأن الجهد العقيم الذى بذلته أمام آلة التليفون أحوجنى الى الرياضة فقلت أتمشى الى الخارجية فهى قريبة منا . فوافقنى اثنان وخرجنا وسرنا على بركة الله نميل مع الطريق حيث يميل ، ويصف بعضنا لبعض ماشاهد الى الآن وماذا

كان وقع ذلك فى نفسه ، وطال الأمر علينا وخيل الى أننا ندور ونعود الى حيث كنا ، فخطر لى أن أسأل لنهتدى ، فانتظرت حتى لقينا فتى فقلت له :

«هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية ؟»

فحملق فى وجهى وقال .

«ايش تقول ؟»

قلت : «وزارة الخارجية التى فيها حضرة صاحب المعالى الوزير ...»

فجذبنى أحد الزميلين وقال .

«ياأخى انت فين ؟»

فغاظنى ذلك واستثار عنادى فقلت :

«اسكت أنت من فضلك . قل لى ياصاحبى . صف لى الطريق»

فقال كلاهما مغمغما قدرت انه الوصف الذى أطلبه وأشار بيده فقلت لصاحبى .

«هيا بنا . لقد عرفت منه الطريق»

فقال أحد الرفيقين :

«ولكن ماذا قال لك ؟»

قلت : «ان ماقاله لى لايهم . ويكفيك انى فهمت مراده» .

فقال : «ليتنى على يقين من ذلك . فان الواقع اننا نسير فى دائرة . وقد رأيت هذا المسجد اربع مرات على الأقل» .

فأكدت له أن هذا كذب لايليق ولايشرف بلاده التى يمثلها هنا ، وان كان لم يعد الحقيقة فيما قال . وصار لابد من اجتناب الرجوع الى هذا الشارع اذا اردت أن لايشمت بى صاحبى . فملت بهما الى طريق جديد لم نضرب فيه من قبل واذا بنا بعد ثلاث دقائق نعود الى المسجد .

فقال صاحبى بلهجة الشامت المنتقم :

«ماقولك الآن ؟ أليس هذا هو المسجد بعينه ؟ هذه خامس مرة أراه فى ثلث ساعة» .

قلت : «محال . انه ليس أكثر من المساجد فى هذه البلاد وهى جميعا متشابهة .

وأسكته بهذه المغالطة وعمدت الى أول رجل صادفنا بعد ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة الخارجية ، فصاح بى صاحبى :

«مادمت تقول «وزارةالخارجية» فلن يفهم كلامك احد . ياأخى أنت فى الحجاز لا فى مصر» .

وهكذا ظللنا نسأل والناس لايفهمون عنا واخيرا يشيرون بأيديهم فنمضى ونكر الى حيث بدأنا .

فاقتنعت بحقيقتين : أولاهما أن الأرض هنا دائرة في كل ناحية . وقد أسلفت القول فى ذلك : والثانية ان على من يسأل الناس عن الطريق أن لايسير الى حيث يشيرون .

والمدهش اننا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن واقفون أمام بابها ! وفى آخر مرة كنا على افريزها ، الأن سيارة كانت مقبلة فخفنا أن ترشنا عجلاتها بالوحل فصعدنا فوق الافريز لنتقى ذلك واذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا .

وقد رأيت «برج بيزا» المائل ، من نافذة وزارة الخارجية او دارها أو لاأدرى ماذا يسمونها هناك . وكنا نتناول الشاى جماعات وجماعات على موائد صغيرة ، وكنت قريبا من النافذة فنظرت فاذا مأذنة مائلة جدا ، فأطلت النظر اليها وانا أتوقع ان تنقض ، فقال لى جارى :

«ماذا يروقك ؟»

قلت : «ألا ترى هذه المأذنة المائلة ؟ ان أمرها عجيب . ولاادرى ماذا يمنعها أن تسقط ؟ لعلها لاتريد أن تزعجنا» .

فنظر جارى وعجب ، ومن حقه ذلك ، فقد كان انحرافها شديدا ، فسألنا واحدا من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنح وقال كلاما لا يقنع ، واعتذر بأن المبانى

فى الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمبانى مصر ، فبينا له أن المتانة والجمال لاشأن لهما ولا قيمة ، وأن المسألة أن هذه المأذنة لايمكن انتظل ذاهبة فى الهواء الآن مسقطها خارج القاعدة ، فاذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولاشك ، ومن حق الحجاز حينئذ ان يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه .

ولما صرنا فى الطريق مرة اخرى رفعت عينى الى المأذنة فاذا هى مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف ، فرجعت أعدو الى الخارجية فاذا هى تبدو من النافذة مائلة ، فانحدرت الى الشـارع وأجلت النظر فى بناء الخارجية فلم ار شيئا يلفت النظر فحرت ، وأخيرا بعد أن حاورتنى المأذنة وخايلتنى حتى كاد يطير راسى حللت اللغز . ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة ، فاذا جلسنا فيها بدت لنا الاشياء منحرفة .

* * *

وخرجنا يوما نتنزه على امتداد الشاطىء فيما وراء جدة ، ولجدة سور قديم لاخير فيه اذا كان المراد به الحماية ، وكان هناك ــ فى السور ــ باب كبير للدخول والخروج ، ومنه يأخذ المرء احد الطريقين الى مكة أو المدينة ، فلما جاءت الحكومة السعودية رأت أن بابا واحدا لايكفى ، ففتحت بوابتين كبيرتين : واحدة للدخول والثانية للخروج ، وأقامت بينهما مخفرا يسأل

الرائح والغادى ويرقب الحركة بينهما ؛ والأمر تافه لا يستحق الذكر ، ولكنه بعض التنظيم الذى أدخلت الحكومة السعودية وارتاح به الناس ، وهم هناك يضيفون هذا الى أمثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الاصلاح ، بقدر المستطاع .

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر ، والبعض جدرانه — ان صحت التسمية — من جوانب صفائح الغاز ، وسقوفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح ، وبعض البيوت من اللبن ، وخلال هذه البيوت الغنم والجمال ، وحولها الكلاب ، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح . وقد وقفنا نتأمل هذه البيوت المتفرقة وخيل الى وأنا أحدق فيها أنى صرت للشعر العربى أحسن فهما ، بعد أن رأيت بعينى ما الطلول الدوارس ، وهو احساس ظل يلازمنى وأنا فى الحجاز فكلما رأيت منظرا من الجبال أو السهول والأودية أو الكثبان أو المراعى أو الدور أو الخيام ، زدت شعورا بصدق تطوير العرب لحياتهم فى اشعارهم ، ولم أستغرب شيئا مما كنت أمله وأستثقله من لجاجتهم فى وصف الطلول والاسفار والرواحل والولع بذلك وايثاره وتقديمه ، وصار لهذا وما اليه معنى جديد عندى ومساغ الى نفسى ، وقد كنت حين أطلع شعر العرب — قدماء أو مولدين — أتخطى هذه الأوصاف اذ كنت لا أجد فيها

متعة ولا اراها تنقل لى صورة لها قيمتها في نظرى ، فالآن أعود الى هذا الشعر الذى كنت لاأطيقه فأرى الحياة تدب فيه وتفيض منه ، وانما أعنى شعر القدماء المقلدين من المولدين او المحدثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة .

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحيبة ، ومركز للاسلكى وحظيرة للطيارات . وليس فى هذا كله مايستوقف المرء ، فما منه شيء غريب ، ولكن هناك ايضا على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسور سد بابه بالحديد ، وكان الناس يفدون اليه زائرين بل حاجين ، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء ، وقد هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شيئا ، ومنعوا الناس أن يزوروه . وحدثنى بعض من شهدوه قبل تقويضه أن طول القبر اربعون قدما ، وانه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها الى آخر جسمها ، وكان الاعتقاد السائد أن امنا حواء بهذا الطول ، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولا وعرضا ، فاذا صح هذا ، فقد كانت أمنا اذا مهولة ، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق وأن تكون أم هذه الاناسى كلها فى الشرق والغرب فليت من يدرى كيف كان آدم ؟ لاشك انه كان أفحل وأهول ، ومع طولهما وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة . فليست العبرة اذن بالطول ! وفى هذا عزاء لى عن قصر قامتى !.

ولم أر فى الحجاز امرأة ولا بائعا متجولا ولا شيخا هما يقوم على الراحتين ، ولا جنازة ميت ، فأما المرأة فلم استغرب الحجاب المضروب عليها ، فنحن فى مصر لايزال منا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب . وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد اليهم فى مدينة صغيرة لم تتباعد اطرافها ولم تفش فيها المدنية ولايزال الزمن يدور فيها متمهلا متباطئا . ولعلى لم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا لأنى لم أبغهم حيث يكونون ، ولكنهم على كل حال لايرون فى الطرقات وعلى أبواب المساجد وافاريز الشوارع . ولكنى استغربت أن أقضى ستة أيام فى الحجاز فلاتقع عينى على جنازة ميت ولااسمع ان واحدا من هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة ، ولاادرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ويحبب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون أن ينتقلوا فى طرفة عين الى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وأنهاره من لبن وعسل وخمر! ولقد اضطررت ان أسأل عن ذلك فضحك الرجل وربت لى كتفى وهم أن ينصرف عنى ، ولكنى تعلقت به وسألته .

«اصدقنى . هل أنتم تموتون فى سركم ؟»

قال : «فى سرنا ؟ ماذا تعنى ؟»

قلت : «أعنى أنكم تموتون أو لاتموتون» .

قال : كيف لانموت ؟ ان الموت حق

قلت : «لست أراه حقا هنا»

قال : «أستغفر الله العظيم . يارجل ؟»

قلت : «أستغفر الله ألف مرة . ولكن لماذا لاتموتون ؟»

فقال مبتسما . «هل تكره لنا الحياة ؟»

قلت : «لاأكرهها لكم ، ولكنى أكره أن نموت دونكم لماذا يكون الموت حقا علينا وحدنا ؟ »

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط ، ليقنعنى، حتى ذلك الطبيب الذى كان يقتلنى بمصليه ، لم تهن عليه نفسه ولو اكراما لخاطرنا أو فى سبيل التدليل على صحة النظرية ــ فهى فى الحجاز نظرية فقط ــ القائلة أن الموت حق . كأن وظيفة الطبيب أن يميت ولايموت .

***

وسيذكرنى الحجاز دائما بأن عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة ــ قطعته ساعة كاملة لاتنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين ، ووقفتهم صفين من الناحيتين متقابلين على أقدامهم الا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ويسير على نهج جديد .

وشرح ذلك أنا فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ

الطويل ، صاحب شركة القناعة للسيارات ، وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك وكان صاحب مال وفير فأتى عليه الاقتراض منه ، فلم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه على ومجىء العهد السعودى بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة . فاتجر بالسيارات وعاد فوقف على رجليه . وكان المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ، ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسينا مكة وذهلنا عن كل شيء ، واخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين ، وذهبنا الى بيوتنا فخلعنا ثيابنا ونضونا كل ماعلى أجسامنا ولففناها ــ أعنى اجسامنا ــ فى مشامل ــ كالبشاكير ــ غير مخيطة ، حتى أقدامنا خلعنا أحذيتها واعتضنا منها السباعيات ؛ وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل فى بعضها الاصابع ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرابيشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائب وتوكلنا على الله .

وركبنا سيارة لاأدرى من أى طراز هى ، وانما الذى أدريه انها كانت فخمة وجديدة ، وانها لم تخرج الا فى يومنا ذاك ، وقلنا للسائق سر على بركة الله وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، واعلم اننا سنتعشى عند سمو الامير فى قصر جلالة الملك باذن الله ، وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب .

فقال : «الله معنا . ان السيارة جديدة وليس فى رسمى أن أسرع بها لئلا تتلف» .

فقلنا . «فلتتلف . فان موعد الأمير لايمكن ارجاؤه» .

ومازلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو . وجزنا أول محطة فى الطريق ومضينا نبغى الثانية واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول .

«حريق . انزلوا»

ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت ، ويظهر ان عصاى التى لم أعن بها من فرط الفزع ، سقطت الى الأرض ، وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة أن ننظر اليها وان نرى الدخان صاعدا من بين عجلاتها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد أدركتانا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض أفندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون .

ولاأطيل . ركبنا السيارة واستأنفنا السير — على مهل . وانسيت العصى لأن الخوف من احتراق السيارة صرفنى عنها ، وجعلت وكدى طول الطريق ان أخرج رجهى من نافذة السيارة وأنظر الى العجلة من ناحيتى وأن أشم ، لعل دخانا صاعد فأنبه السائق .

والطريق الى مكة طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه «وابور الزلط» وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل ، والآخر للجمال والمشاة ، على يميننا ويسارنا . والجمال التى رأيتها صغيرة وهى أشبه بالبعران فى بلادنا ، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت ، وهى تسير قوافل قوافل ، وقد عددت خمسين جملا فى قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصناديق والاكياس أو الغرائر ، وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغرية .

وليس أحلى ولا أفتن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل ، والطفل لا يبرك الجمل حين يريد أن يصعد الى ظهره ، وانما يعمد اليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا الذيل حبلا او سلما أو مرقاة مستعينا بقدميه يخطو بهما على فخذى البعير كأنهما جداران ، ثم اذا هو فوقه . وامتع من ذلك وأبعث على الدهشة أن ترى بعيرا على سنامه رحل وعلى عسيبه — عظم الذنب — طفل والعسيب منحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها الطفل وماذا يمسكه فوقها ؟ ساقاه يقبض بهما على الجانبين .

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق — اذا اعتبرنا ساعتى وهى بالحساب الغربى — وقبله بأكثر من نصف ساعة اذا اعتبرنا أن الحجازيين يحتمون على الشمس أن تغيب فى الساعة السادسة لا فى منتصفها .

وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا ، وبينما نحن نتحادث دعى مدير الشرطة أو لاادرى من هو الى التليفون ، فاستأذن وذهب ثم عاد يسأل :

«هل لأحدكم عصى ؟»

قلت «نعم أنا لى عصا ولكنها والله فى السيارة . تركتها فيها ، لأنى لاأدرى هل يجوز أو لايجوز أن يحمل المحرم عصا» .

« قال : «ما أوصافها ؟»

قلت : «وماشأنك أنت بالله ؟ هى عصى والسلام» .

قال : «لا لا لا . لقد وجدت عصا فى الطريق قرب الرغامة فقطعت على الناس السبيل» .

فضحكت وقلت «أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ولاتخرج على النظام ولاتعرف قطع الطريق» .

فلم يجد حتى بابتسامة ، وضاعت على النكتة فى هذا البلد الجاد ، وقال : «ابحث عنها من فضلك فان الطريق مقطوع ولاأحد يروح ولاأحد يغدو» .

فهرولت فى مشاملى الى السيارة فلم اجد العصى فعدت وقلت له :

«هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن اعتذر

بالنيــابة عنهــا» فمضى عنى الى التليفون ، وخفت أ
يأخذونى بها ويجزونى بما صنعت فان للقوم هنا شريعة
غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه وأسررت اليه وهـ
يتكلم فى التليفون :

«أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل
«ولاتزر وازرة وزر اخرى» .

فلم يزد على ان التفت الى وقال :

«هل نردها الى جدة او ندركك بها فى مكة» .

فقلت : «لست أريدها والله فانها فاجرة كما ترى ،
واخشى أن ينزو براسها خاطر آخر ، أفلايمكن دفنهـ
فى الرمال مثلا ؟»

فقال للتليفون لالى : «أرســلها مع الشرطــة الى
الضيافة» .

فصحت به : «لا لا . ردها الى جــدة من فضلك
فحسبى ماصنعت .

فقــال لمخــاطبه فى التليفون : «هل ردها الى بيت
العوينى فى جدة . رجاء» .

ثم التفت الى وقال : «هيا بنا فقد تأخرتم» .

ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى وماصنعت ،

فقد كنا فى الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف هذه السيارة الذى يغلى ، نصيح بأحد الواقفين هات ماء» .

فلايتزحزح ولايدنو منا بل يقول وهو واقف مكانه .

«تفضل»

فينزل السائق ويجىء منه بما يريد . وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقيل لنا بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شىء من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة . وجزاء السارق هناك قطع اليد ، وقد أمن ابن السعود الناس على أرواحهم واموالهم بشيئين . بقطع يد السارق وبما يسمونه التصبيحة .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لايحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن وقال له . «هذا كيس بن وجدته فى الطريق» .

فسأله : «ومن ادراك أن فيه بنا ؟ جسسته أو فتحته ونظرت فيه ، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لأخفيته ولم تظهره ولم تسع به الى . كلا ! حتى الجس لايجوز . اقطعوا يده .

ومن اجل ذلك يقع الناس على الشىء فى الطريق

فلا يقربونه أبدا ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا الى طريق آخر غير الذى فيه هذا الشىء المطروح حتى يمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو يمروا هم بالشرطى فيبلغوه . واذا لم يقعوا على صاحبه نشروا فى «أم القرى» اعلانا تحت عنوان «لقطات» .

أما التصبيحة ، فشىء آخر . تكون هناك عشيرة ضرت بالسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة . فان كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فبها ولله الحمد ، والا همس فى أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل فى فرقة من الجيش من غير أن يفضى الى أحد بغايته ومقصده ، ويجنب فى طريقه الى العشيرة مواضع الماء ، ويضرب بجيشه فى الصحراء التى لاتطؤها قدم ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة فى الفجر فيصلى بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيصبحونها وهم يصيحون :

«هبت هبوب الجنة . أين أنت ياباغيها»

«خيالة التوحيد اخوان من أطاع الله» .

فلايبقون ولايذرون .

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز . لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى تصبيحة أخرى .

والطريق الى مكة واد غير ذى زرع ، وعلى جانبيه جبال شتى الشكول متفاوتة العلو ، ومناظرها توقـع فى الروع أنها غاصة بالمعادن المختلفة ، ولست أعلم أن أحدا درس طبيعتها وفى الطريق محطات أو استراحات ، يجد فيها المسافر القهوة والشاى ، ويستطيع أن يبيت فيها اذا أدركه الليل أو التعب أو كلت مطيته ، وكبراها بحرة فى منتصف الطريق ؛ ولها سوق دكاكينهـا من الخيش والخشب ، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة فيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض فى الطريق ، من الحجاج أو الأهالى . وفى كل محطة مخفر وتليفون . ولم أستغرب هذا الطريق الموحش ولم أجد فيه جديدا ، فانى فى مصر أعيش فى رقعة من الصحراء والى جانبى الجبل .

وقد دخلنا مكة بعد العشاء .



فتح مكة

دخلنا مكة لا أدرى متى ؟ ــ بعد العشاء أو بعد المغرب ، فى الظلام والسلام ــ فما فى الوسع أن يعتمد المرء فى الحجاز على الوان النهار والليل لمعرفة الوقت ، أو يركن الى الشمس أو حتى الى القمر ، وقد انتهيت بعد ثلاثة ايام الى اساءة الظن بالشمس والايقان باختلال دورتها . وهل كان فى مقدورى أن اكذب ماأجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن أصدق هذه الشمس القديمة وحدها ، ولم تكن ساعتى على يدى فقد تركتها مع ثيابى لما لففت نفسى فى مشامل الاحرام ، فلاعجب اذا كان الأمر قد اختلط على فلم اعد اميز بين النهار والليل .

بعد العشاء اذا أو بعد المغرب ــ كما تشاء فكله ليل ــ شارفنا مكة فنفخ السائق فى بوقه تنبيها وزجرا للناس عن الاحتشاد فى طريقه ، وفتحت أنا الشباك

الأنظر فلم تأخذ عينى شيئا ، حتى رمال الطريق وصخور الجبال لفها الظلام فى شملته ، فاضطجعت وقلت ان لى شأنا غير شأن اصحابى ، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنهـا فمن حقهم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا ـ اذا وسعهم ذلك ـ ولكنى أنا ابن هذه البلاد ، بل ابن هذه البلاد ، بل ابن مكة بالذات ، فان جدتى الأمى مكية زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلا فحلا من اهل المدينة فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها الى مصر بعـد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته فتزوجت جدى ، ثم أن أبى مازنى مثلى ، وقد انحدرت اليه هذه «المازنية» ثم الى بعده على نحو ماانحدرت الينا «الآدمية» ، وهـذا كله مفسر فى «صندوق الدنيا» فيرجع اليه من شاء من طلاب هذه الأنساب العريقة . وقـد أسلفت القول على قبر حواء جدتى العليا ولست أكتم القارىء أنى تأثرت جدا وان الدمع غلبنى حين الفيت نفسى ـ أنا الغريب البعيـد عن وطنى وأهلى وأصحابى وعن كل من يعنى بى أو يكترث لى ، واقفا أمام قبر جدتى ! وصحيح أن القرابة بعيدة، ولكنها على كل حال ، من رحمى ، أو أنا على الأصح من رحمها . ولم يخالجنى ظل من الشك فى أن هذا قبرها على التحقيق ، فقد حن الدم فى عروقى اليهـا ، وكان حنينه بالفـريزة التى لاتخطىء ، ولن يكذب الدم فانه ليس بماء ، وشعرت بأن معين حبى البنوى لها قد جاش واضطربت أعماقه وطغى وفاض من مقلتى فاستندت

الى حديد الباب وأسبلت الدمع . نعم بكيت أسفا ، لأن جدتي لم يطل بها العمر حتى ترانى ، كلا . ومما ضاعف أسفى أنى أنا أيضا لم يفسح الله فى أجلى حتى كنت أراها ــ فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يجيئا بى ببضعة آلاف من السنين كان من السهل أن تطوى ولم تكن الدنيا تخسر شيئا لو أنها لم تكر عليها . بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحو ما ، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل ! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام . ولعل ماصارت اليه جدتى المسكينة المحرومة هو الخير ، ولو أنها عاشت الى اليوم ولم تمت ، لما أتيحت لنا فرصة للخروج الى الحياة ، وفى هذا بعض العزاء لنا .

ورأيتنى أتلفت ــ بقلبى فقط ــ وانا داخل مكة كأنما ابحث عن بنى مازن أهلى وعشيرتى ، واشتقت أن أعانق القبيلة كلها بكل مافيها حتى الخيام والجمال والخيل والسيوف والرماح ، وأن أضمها الى صدرى وأن اريح رأسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح بلقائها بعد طول النوى وبعد الشقة ، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى ، وساورتنى المخاوف عليها ، وأشفقت أن يكون ابن السعود قد رماها «بتصبيحة» ! فان قومى ــ عفا الله عنهم ــ من ذوى المروءات ، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافرا

مثقلا بالأحمال رازحا تحت الأعباء ، وابن السعود يكره هذا التخفيف عن الناس ، ويؤثر ان يدعهم ينوؤون بما عليهم وما معهم ، ولايجيز هـذا الضرب من التعاون . راقسمت — فى سرى — اذا كان (الاخوان) «(١)» قد (صبحوا) قومى ، ليكونن لى معهم شأن آخر .

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد :

« الا تفتحون النوافذ ؟»

قلت : «ولماذا ؟» .

قال : قد يكون هناك جند لتحيتكم فيحسن أن تبرزوا فى التحية» .

فقلت وأناارتد الى الوراء وقد احسست أن وجهى صار كالجمرة وان كانت المرآة التى امام السائق لم ترنى شيئا ، لأنها بعيدة عنى ومنحرفة ايضا :

«عفوا ياسيدى . لاتخجلوا تواضعنا . ارجو . الح ... اصرفوا الناس عنا ..» .

وكنت اريد ان اقول كلاما آخر ولكنى نسيته لأن صيحة مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على اثرها قعقعة سلاح ، فخفت وسممت اسنانى تخبط وهى تصطدم . ثم ملكت نفسى واسعفنى الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على باب مكة .

---

(١) الأخوان لفظ يطلق على النجديين .

وانطلق البوق يرد الناس عن الطـريق ، ومضى السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يفر بهـا من الموت ، ولايمهلنا حتى نتأمل النـاس المحتشـدين على الجانبين والدكاكين المضـاءة ، بمصـابيح البترول ــ او الزيت فما أدرى ــ والطريق طويل يشق مكة من بابها الى آخر الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسيارة فى سبع دقائق ، ثم وقفت بنـا أمام دار الضـيافة على «المسعى بين الصفا والمروة» وامام باب السلام ، فنزلنا واقبل علينا ناس كثيرون يسـلمون علينا ، فقلت هـذه فرصة ، ولعل بعض قومى بينهم أتوا مسـتخفين فملت عليهم ، أو على الأصح ، شببت اليهم وتعلقت بأعناقهم «طوقتهم بذراعى وساقى أيضا ــ ذراعاى حول أعناقهم وساقاى حول خصورهم ــ واهويت عليهم أقبلهم والثم افواههم وخدودهم وانوفهم وآذانهم ورؤوسهم ، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما تستحقه وتستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم .

وملنا الى غرفة رحيبة نصفها ميضأة ، والنصف الآخر تصعد اليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس وفى وسطه مكتب عليه تليفون ، فهممنا بالجلوس فقيل بل توضأوا لتطوفوا وتسعوا وتتحللوا من الاحرام ، فان سمو الأمير ينتظركم . فتلفت حـولى ثم الى الدرجتين ورحت أفكر فى طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله على بحيلة ، وكان اخوانى فى خـلال ذلك قد سـبقونى الى

الوضوء فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبدا طويلا فأشرت اليه فدنا منى ، فانحنيت من مرقبى العالى كانى أريد أن اهمس فى أذنه شيئا ثم غافلته وتعلقت به ودرت وتركت نفسى أنحدر على هذا العمود الآدمى الى الارض بسلام .

وقدم لى أحد العبيد «قبقابا» فنظرت اليه ثم هززت رأسى وسألته :

«ماهذا ؟»

قال : «قبقاب للوضوء»

قلت : «ولكن كيف ألبسه ؟»

قال : «اخلع نعليك وادخل هذا بين اصبعيك» .

و «هذا» عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب المنجور عمودية على سطح القبقاب ، يدخلها المرء بين اصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القبقاب على الأرض ولايرفعه عنها لئلا تفلت الاسطوانة من بين الاصبعين ، اذ لا سير من الجلد له يمسك ظهر الرجل ، فقلت بل الحفى خير من هذا وقعدت أتوضأ .

وللحرم عدة أبواب ، ينحدر منها المرء الى صحن رحيب جدا يدور بالكعبة ، كصحن الأزهر الا أنه أوسع كثيرا ، وأرضه رمل حصى ، ولكنه حول الكعبة مبلط ، وكذلك مابين الأبواب وهذا المطاف . وقد تسلمنا شيخ

المطوفين ومضى بنا الى مقام ابراهيم ـ جدى أيضا ـ عليه السلام ووقف بنا وصفنا بين المقام وزمزم وقال صلوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف ، وشرع في العمل ، وكنت أتمنى لو تريث قليلا ـ دقائق فقط ـ لأنظر الى الكعبة في الليل على ضوء الكهرباء ، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى ذراعيه الى صدره كأنه يتهيأ للجرى ، وتلك هى الهرولة ، ومضى يدعو ونحن نقول وراءه ، وكنت وأنا أهرول موزع النفس ، عينى الى الكعبة والى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول وراء مطوفها وأذنى الى هذا الشيخ المطوف الذى كان يأبى الا أن ينطق عبارات الدعاء بأقصى مايستطيع من البطء والوضوح وبأكثر مايسعه من اللحن أيضا ، كأنما حسبنا بعض الجاويين أو الهنود ولم يدر ـ سامحه الله ـ أنا .. ولكن المفاخرة لاتليق . غير أن لحنه كان يمزق أذنى ويفسد على تبتلى في الطواف ، وقد اذكرنى جماعة «التراجمة» في مصر الذين يحشون رءوس السائحين وزائرى الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة ، وكما عالجت مصر مشكل التراجمة والأدلاء بانشاء مدرسة لهم كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهدا لتخريج المطوفين ، وحسنا فعلت ، فان من رأينا من المطوفين أعاجم .

وودت لو أتيح لى أن أتمهل عند الحجر الاسود فانه عجيب ، ولكن الزحام كان شديدا : ولسنا بأحق من

سوانا بذاك ، وهو أسـود فاحم ووضـاء مشرق ، وحوله اطار بيضاوى من الفضة والمرء يحتاج حين يقبله أن يدخل وجهه فيه لأنه ـ أى الحجر ـ مجوف • وأحسب أن ألسنة مئات الملايين من الخلق قد لحسته وأكلته ، أو ، لا أدرى ، لعله كان هكذا أبدا ، وقد قلت وأنا أفعل مافعلت الملايين قبلى وما ستفعل الملايين بعدى ، كما قال عمر ابن الخطاب: «اللهم انى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله مافعلت »

والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر الاسود ، ولـكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه الى الخضرة أميل ، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنـين كأنه من المعـدن أو الفضة • وقد نازعتنى نفسى مرارا أن أترك الصف وأتخـلى عن المطوف وأدنو منه لأتأمله ، فلما أذن لنا المطوف أن نفعل فى الطواف السابع كنت أسبق الاخوان اليه •

والحق أقول انى أحس أن طوافى هـذا لم يحسب لى فى عداد الحسنات التى يسجلها أحـد الملـكين ، فقد أفسده المطوف بلحنه كما أسلفت القول فى ذلك ، وكنت أنا من ناحية أخرى أرد عينى بجهـد واضـح عن التطلع والنظر فيما حولى ، وهكذا خرج كل من اخوانى بقصر أو قصور فى الجنة وخرجت أنا كمـا دخلت وليس لى سوى مشملين على بدنى احتفظت بهما للذكرى ، فلا بد اذن من عمرة أخرى أو حجة أعوض بها ما فاتنى •

وقد اشتهيت وأنا ألمس الحجر الاسود أن اقتطع منه قطعة أحملهـا معى وأعود بها ، فقد خيل الى انه عنبر متجمد لا حجر ، وجمحت بى هـذه الشهوة حتى لأنستنى أن ليس على بدنى سوى مشامل الاحرام فذهبت أتحسس لعل معى مبراة أو شيئا يصلح للقطع ، ثم أفقت والتفت واذا بأحد أصحابى يمد يده بمنديل يمسح به الحجر ، فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله وأين خبأه ، وقد كانت يداه فارغتين ، وتأملته واذا بالخبيث يلبس تحت المشامل ثيابه الصوفية ·

وقد قلت له لما عدنا الى دار الضيافة :

« هات جنيها ياسيدى · جنيها ذهبا · »

فحملق فى وجهى وقال : « لماذا ؟ »

قلت : « جنيها نشترى به ذا القرنين »

قال : « ذا القرنين ؟ لست أفهم »

قلت : «خروفا ذا قرنين طويلين متلويين نطلقه عليك فينطحك بهما ثم نذبحه ونطعم الفقراء لحمه » ·

قال : « ولكن لماذا ؟ »

قلت : «جزاء وفاقا بما زورت على الله ياخبيث ! أتلبس ثياب الصوف تحت المشامل مغالطا ربك فى قلب الحرم المقدس ثم تتجاهل وتحاول أن تهرب من الفدية ؟! هات لنا ذا القرنين عجل ! »

ولكنه لم يزد على أن قال : أوه ! «وضحك»

وملنا الى زمزم وهى بئر فى الحرم عليهـا بناء له باب ، فسقونا منها ماء غير سائغ ، ودخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدرى لماذا ، واقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها فلم نر لهـذا موجبا ، فإن ماءها باردوجو مكة فى الليـل غير دافىء ، وعلى فم البئر سور من الحديد عال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحـلو لهم أن يلقوا بأنفسـهم فى البئر ليغرقوا ويمـوتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها الى الجنة مباشرة بأخصر طريق ٠

وخرجنا لنسعى ، بين الصـفا والمروة ، وهو طريق بينهما مهدته الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلا للسعى ، وطوله نحو كيلو أو أقل ، ولا بد من قطعه سبع مرات ؛ فلما شرعنا نسعى جاءنا البشير من قبل الأمير أن فى وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان التعب قد أدرككم فرفعت يدى بالدعاء لسـموه وابتهلت الى الله أن يطيل عمره وأن يلهمه دائما — على الأقل ونحن فى الحجـاز — مثل هذا التيسير على النـاس وعدوت الى السيارة فصاح بى الدليل الذى يسعى بنا أو معنا على الاصح :

« الى أين ؟ »

قلت : « الى السيارة ٠ ياصابر ٠ تعال بسرعة »

ولكن صابرا سائقنا كان ملكيا أكثر من الملك ، فقد

أبى لنا أن نسعى بالسيارة وقال ان هـــذا لا يجوز ، وان المسعى غاص بالساعين وبالنساء والرجال والاطفال. فليس ما تبغون من الانسانية فى شىء • فخجلنا وتركنا السيارة بعد أن استوينا فيهـــا • وأصارح القارىء بانى لعنت «صابرا» هذا فى سرى ، وان كنت لم يسعنى الا احترامه، وهو شاب فى العشرين من عمره حدثنـــا فى الطريق أنه مصرى الاصل وان لأسرته نحو مائة عام فى الحجاز ، وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية ، ولكنه الآن سائق سيارة فى شركة القناعة ، وأبرز صفات هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الادب الوافر ، وحديثه ممتع وفى لغته فصاحة وفى صـــوته عذوبة وفى عينيه حلاوة ، ولو كان الغناء مباحا لكان الارجح أن نسمع منه شدوا مطربا ، وقد كان يخـــاطب كبراء الحجاز فى جدة ومكة وفى الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل أمامهم سيجارته ويذهب يدخن ويناقشهم ويحاجهم ويعترض على بعض ما يقولون ويدلى بالصـــواب فى رأيه كأنه ند لهم ، وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولايرون فيه شذوذا ، ولايبدو عليهم أثر لدهشة أو الامتعاض ، فالأمر اذا مألوف •

ولكنه حنبلى مستبد ، أبى لنا أن نسعى بالسيارة ، فلما أصر رسل الامير وألحـــوا ، ترك الســـيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره ، وأحسب صابرا قـــد حقدها علينا وأسرها لنا فقد تخلى عنا بعد أن عدنا الى جدة ، وعلى أن هناك حاقدا غيره ، هو زكى باشا • ســـعى على قدميه مع

بقية اخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعـدها يشنع علينا ويشهر بنا ــ مازحا ــ فى كل خطبة له ، بل جعل يتخذ من ذلك دليلا على ان الاسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية الحديثة ، وما كان هـذا الدليـل ينقصه ولكنها الرغبة فى التشهير بضعفنا واعيائنا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه .

وقصصنا شعرات من رءوسنا ولبسنا ثيـابنا ، أما أنا فاخطأت وقصصت الشـعرات بعد ارتداء الثياب ولم اتنبه الى خطئى الا بعد أن صرت فى نصف ثيابى ، فكتمت الامر ، وفى مرجوى ألا يفطن اليه الملك الموكل بى ولا أدرى أيهما ولكن هذا الاختلاف على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما ولا دخل لى فيه ولست مكلفا آن أفضه ــ غير أن أحد زملائى أبى الا أن يلاحظ ذلك ويرفع به عقيرته ويصبح مسـجلا على هذه المخـالفة ، فأحسست بالملكين جميعا يتـحركان وينتزعان الريش من جناحيهما لتـدوين هذه الملاحظة ، فكظمت غيظى وقلت وأنا أتكلف الابتسام :

« ياسيدى ان العمرة فسدت كلهـا من قبل ذلك ، وقد اعتزمت أن أعوض ما فاتنى فى وقت آخر »

ثم التفت الى يسـارى وقلت بصـوت عال لكاتب السيئات :

« وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى : الى المطوف أولا ثم اليكم ، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل» .

واسترحت بعـــد أن أدليت بحجتى وشرحت عذرى وحركت كتفى اليمنى تنبيها لمسجل الحسنات ٠

* * *

وقصر الملك فى طرف من المدينـــة ، وهـو طويل عريض ، مبنى بالآجر ، وله جناح جديد هو الذى دخلناه، وفى فنائه حديقة صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب وحيانا لا أدرى كيف فلســـت اخصـائيا فى حركاته ٠ وصعدنا الى حجرة عظيمة طولها ـ على ما أقـدر ـ لا أقل من خمسة عشر مترا فى نحـــو عشرة أمتـــار ، مفروشة ببســاط من المخمل ، وعلى مدارها مقـــاعد عالية شبيهة «بالكنب» المصرى ، ومكسوة «باليوت» والمخمل ، وكذلك «براقع» الســتائر وفى وسطها صـــف من العمد يحمل سقفها ، والجدران مكلسة ، وكان الامير جالسا فى الصدر فنهض لاستقبالنا ، فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة ، ومن بعدها الشاهى أو الشاى ٠

والامير فى الرابعة والعشرين من عمره ، وهو نائب الملك فى الحجاز كما ان أخاه الاكبر الامير سـعود ـ ولى العهـــد ـ نائب الملك فى نجـــد ، وثيـابه ثوب أبيض «كالجلابية» المصرية فوقهـــا سترة «جاكتة» رمادية عليها العباءة السوداء وهى رقيقة النســـج شفافة ، وعلى رأسه «الحرام» والعقـال ٠ وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع ، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة ،

وفى تقوس شفتيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم ، أما القوة فآيتها أنفه الأقني وجبينه العريض • وأغرب ما فى وجهه اجتماع اللين والصلابة والرقة والقــوة ، واختلاط ذلك كله وتسرب بعضه فى بعض ، وهو أنطق وجه رأيته بجميع هذه المعانى ، غير أن المرء لا يسعه الا أن يشعر أن هناك زاوية وراء هــــذا المحيا النــاطق يغيب فيها الامير خواطره وأراءه الخاصة ويحجبها عن العيــون الفاحصة • وقد كنت أتوقع ــ قياسا على ماشهدت فى جدة ــ أن يكون قصر الملك أفخم رياشا وأفخر أثاثا ، فاذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه •

وغرفة الطعام كأبســط ما تكون : حجرة مستطيلة تسع نحو مائة ؛ فى وسطهـــا مائدة طويلة ســاذجة صفت اليهـــا الكراسى الخيزران ، وأدوات الاكل تامة ، والآنية كلها من طراز واحد ، والملاعق والسكاكين وما اليهـــا من الفضة ، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفـــكه عليه بالحديث ، ولم يكن ثم نظام معين أو ترتيب معد للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء ، وقد احتفظت بقائمة الالوان ، وهى مطبوعة على الآلة الكاتبة وفى نشرها دفع لكثير من الاوهام الصبيانية •

« شوربة بالبزاليه

دجاج رستو بالبوريه

بامية

حلا كريمة بالكاكاو

بريك

دجاج بالكرى

بدنجان اسود بالزيت

حلا كيك بالمشمش

رز بالشعرية

فاكهة »

وقد علمنا من سـموه ان الخضر تزرع فى وادى فاطمة ـ وسيجىء ذكره ـ من مثـل البـامية والملوخية والباذنجان والخرشوف وما الى ذلك ، وفى الوادى فواكه كالموز والليمون الحلو فضلا عن الملح ، وقـد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المبـاهاة ، ولفتنا بصـفة خاصة الى الباذنجان ، ولكنى لم استمرئه لأنه غليظ سميك الجلد غير سائغ الطعم •

ولا أطيل على القارىء • ذهبنا بعد الطعام الى حجرة أخرى للجـلوس ، مؤثثة على طراز حجرة الاسـتقبال الكبرى ، ولكنى استغربت أن أرى فيها دولابا مما يتخذ للثياب ، وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاى ، واشتهينا أن ندخن ، ولكن التأدب منعنا ، والناس لا يدخنون فى حضرة الامير أو كبار النجديين لان الدخان مكروه عندهم ،

وكان الليل قد انتصف فاستأذنا في الانصراف ، ولو أنا كنا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبتنا الى الصباح ، فما ممـا يليق عندهم أن يصرف الرجل ضـيفه ، ولم نكد ننطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجاير •

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فـراش اتخـذه واحد قبله ، فاذا ذهـب ضـيف فكت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من الضيوف ، وقد لفتنا الى هـذا أنا رأينا كل ما على الاسرة جديدا لا شك في ذلك ، فسألنا فعلمنا ماروينا ، وقيل لنا سترون المنجد غـدا يدخل وأنتم خارجون • وأقسم مانمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع ، ولقـد راهنت واحدا على أنه محشو بالريش فخسرت الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر •

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النـوم وجدت أنى نسيتها فى جدة ، فقلت : لا بأس قليل من التقشف ينفع المترف ، وبحسبى بعض ما على من الثياب •

وأخذنى النوم وأنا أفكر فى الأمير وفى انتظاره ايانا فى قصر جـلالة الملك ثـلاث ساعات من غير أن يمل أو يتأفف ، بل من غير أن نشعر نحن بالحاجة الى الاعتذار له •

لا أدرى ماذا أصابنى فى مكة ، فقـد كنت أحس أن عفريتا من الجن ركبنى ، وبلغ من شدة الحاح هذا الشعور انى كنت أرانى أقف فى الطريق وأثبت قدمى فى الارض

مباعدا. بينهما وأرفــع احدى ذراعى الى ما وراء كتفي كمن يريد آن يسند شيئا ثم أرفع كتفى وأحطهما كأنى أريد أن أرد مافوقهما الى الاتزان والاعتدال كمـــا يفعل من يحمل طفلا أو غير ذلك ، فذكرت قصة السندباد البحرى الذى ركبه ما ركبنى ، فلم يزل مستقرا على كتفيه حتى ســقاه السندباد البـــحرى خمرا أدارت رأســه وراخت أعصابه وفككت أوصاله فطرحه عنه • ولقد تمنيت لو أتيح لى أن أســـقى عفريتى كأسا من الوســـكى أو حتى من الزيت لأتخلص من ثقل هذا الكابوس ؛ ولكنا كنا فى مكة ولا سبيل فيهـــا الى شراب غير ماء زمزم ، وهو ماء قد يغشى النفس ولكنه لا يسكر ••

على أنى لم أقطع الأمل ، وكيف أقطعه وهذا العفريت على كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما ؟ وكيف أطرح حمله الثقيل عن عاتقى بغير الوسكى أضحك به عليه وأزلزل كتفى تحته ؟ ففحصت الوجوه التى حولى وتفرست فيها مليـــا ثم اخترت وجها كالمنتفخ فيه عينـــان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب ، وقلت له :

« يا صاحبى أنى أشيم الخـير من وجنتيك ، وآنس الرشد من عينيك •• »

فقاطعنى « عفوا سيدى •• »

قلت « لا داعى لهذا التواضع فان الامر بين ولا يشك فى ذلك الا أعمى ؛ فهل لك فى معاونتى ؟ »

ففرك كفيه جذلا وتهدلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن أسنان طويلة سوداء ، وقال وهو يحنى رأسه قليلا :

« مرنى ياسيدى نحن هنا خدامكم »

فوضعت كفى على كتفه وقلت :

« أستغفر الله · ان الامر بسيط على ما أظن لايحتاج الا الى خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس»

فحملـق فى وجهى كأنه لا يفهم فمضيت فى كلامى وقلت :

« ان لنا فى مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت اذا ركبت الناس ، وقد أخذناها عن السندباد البحرى ، أظنـك تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت به · انه ذلك التاجر البغدادى الشـهير ·· آه لا تعرفه ؟ عجيب هذا ! اذا ما طريقتكم أنتم ؟ »

فتلعثم وقال : «طريقتنا ؟ طريقتنا ؟ هل يريد السيد المازنى أن يقول انه يعتقد أن العفاريت تركب الناس ؟»

قلت بضجر : «طبعا · طبعـا ان العفاريت مذكورة فى القرآن أفـلا تؤمن بالقرآن ؟ على ان المسألة لا تحتمل الخلاف فان الواقع من الأمر أن على كتفى الآن عفريتا وأنا أريد أن أصرفه فما أسـتطيع أن أظل أحتمله فى غدوى ورواحى هكذا ! ثم انى أريد أن أدخـل الكعبة غدا فكيف أدخلها بعفريت ؟ ألم تفهم ؟ ان العفريت يود أن يغتنم هذه

الفرصة ــ فرصة وجودنا وكوننا ضيوف الامير والسماح لنا بدخول الكعبة بغير تفتيش : فيدخل معى ، أعنى مستخفيا على كتفى . وهذا لا يجوز ، ولست أرى أن أساعده على ذلك . أفهمت الآن ؟ »

فضحك الخنزير ــ أعنى الرجل الذى توسمت منه الخير ، وظننى أمزح ، وقال :

« يارجل . والله لقد حسبتك جادا ؟ »

فغاظنى ذلك ولكنى كظمت غيظى وقلت بابتسامة متكلفة :

« لقد أخطأت . اسمع . قد يكون عفريتى مؤمنا أو لا يكون لا أدرى . لذلك أريد أن أصرفه . فهل لك أن تعيننى ؟ أجب بلا أو نعم . وعسى أن لا تخيب أملى فيك »

فعاد اللعين يضحك ، وأحسبه أحب أن يجارينى فيما ظنه مزاحا منى فقال :

« وما هى طريقة السندكار البحرى التى تتبعونها فى مصر ؟ »

فتشجعت وقلت بلهجة الجد المر .

« نسقيه كأسا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستريح منه ــ طريقة عملية ــ بل هى أضمن طريقة لان قوة الاسكار فى الخمر حقيقة علمية ولهذا نهى الشرع عنها »

فأرسلها ضحكة مجلجلة تجاوبت باصدائها الحجرة فأسرعت فوضعت يدى على فمه وبودى لو أكتم أنفاسه فقال بعد أن تخلص منى :

« والله يا أهل مصر انكم لظرفاء »

فقلت « العفو . هذا بعض ما عندكم . على أن فى الوقت متسعا لتقارض الثناء فهات لعفريتى كأسا »

فابتسم وقال :

« كيف تسقيه وأنت لا تراه ؟ »

فقلت « انى أعرف الطريق الى فمه فان بيننا الآن اتصالا لا تدركه أنت . فهاتها أولا والباقى على » .

ولكنه لم يفعل ، لأنه ظن لبلاهته أنى أستدرجه الى الاعتراف بأن فى مكة خمرا ؛ وقد رأيته بعد ذلك فعجبت أين غابت سمات الخير وكيف استسرت مخايل الرشد التى كنت اجتليها فى وجهه ؟

وقد سلط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر أو قبيله بدقائق وكنا نياما ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكان عفريتى قد انصرف عنى فى الهزيع الاخير من الليل — انصرف على يأس كبير ، وكان فى حجرتنا ستة أسرة على صفين ، والباقون منا فى حجرات أخرى . وكان سريرى بجانب النافذة بحيث يسعنى بأيسر مجهود أن أطل من الشباك على الحرم ، واتفق انى كنت أحلم بالعفاريت

وأرانى كأنى أسقيهـا خمرا وأعابثها وهى تترنح فأدغدغ لها خصورها تارة ، وأشعل السجاير من عيونها طورا ، وأجرها من ذيولهـا وأديرها حولى ، وهكذا واذا بصـوت ممدود مزعج يوقظنى من سباتى ويبـدد أحلامى اللذيذة ويطير خيالاتى الممتعة ، ففتحت عينى متضجرا ، فاذا شبح ضخم يبـدو من وراء الكلة فقلت لنفسى « يا للفضيحة ! أيسطى علينا فى دار الضـيافة ؟ » وابتسمت مطمئنا فقد تركنا ما معنا من النقود فى جدة ، وتناومت لأرى آخر هذه الحكاية ، فانبعث من الشبح صـوت غليظ مديد فرفعت رأسى مقدار قيراط فاذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئا عظيما جدا ، ولم يعجبنى أن يوقظنى فى فحمـة الليـل فحولت وجهى عنه فمد يده وصاح :

« قم ! »

فاشرت اليه ان لا ، فعاد يصيح

« أقول لك قم »

فصحت بأعلى صوت أستطيعه :

« وانا اقول لك لا فاذهب عنى »

فقال : « قم لنصلى الفـجر فى الحرم . منظر لذيذ لا يصح أن يفوتك »

فقلت « اذا كان المنظر هو كل ما نبغى ، فاذهبـوا انتم فان منظركم من النافذة سيكون امتـع لى ، ويمكنكم أن تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها »

وأحسبه لم يسمع أو لم يحفل ما أقول فمد يده من تحت الكلة وراح يشد اللحاف ويعريني وهو يقول :

« قم .. قم .. قم .. »

فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى :

« لا .. لا .. لا .. »

ومضى عنى الى الباقين واحدا واحدا ونسى انه أيقظهم جميعا حين أيقظني

... وتوضأنا ودخلنا الحرم ، وفتحت لنا الكعبة وبابها عال والصعود اليه بسلم خشبى متحرك ، يوضع عند الحاجة ويرفع بعد ذلك ، وهو من النوع الذى كان يتخذ فى المساجد المصرية ليرقاه الخادم ليبلغ الاسرجة فيضيئها أو ينظفها ، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء وتناول يدى سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكدت أقع وأستوى ذلك أنى كنت أصعد على يدى ورجلى كما تفعل القردة ، ولما استويت واقفا طوقنى بذراعيه وغمر وجهى بلحيته البيضاء الطويلة وكنت أنا أيضا قد أرخيت لحيتى ، وكانت بيضاء كذلك ، ولكنها قصيرة فأسفت لأنى لم أرسلها قبل رحلة الحجاز ببضعة شهور ، اذا لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند ، وأن أشكه بلحيتى كما شكنى بلحيته ، على أن لحيتى على قصرها أفادتنى فى الحجاز وبدأتنى مقاما

ملحوظا ومركزا ممتازا ، واكسبتني وقارا ليس لي ؛ وجعلت لي سمتا وأبهة لا عهد لي بهما . وكان الناس يحتفون بي ويهرعون الي ويكبرونني من أجلها ، ويتحنون على يدي فاحديها وأقول : « استغفر الله . نؤ . نؤ . نؤ بارك الله فيكم » ويعدون بي ويمنعونني أن أمشي الى حيث السيارة لان من كان في مثل سني ، وكانت له مثل لحيتي البيضاء لا ينبغي أن يتجشم مشقة ، أو يكلف تعبا . فلو أن الغيد في الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعا كما قال ابن الرومي :

أصبحت شيخا له سمت وأبهة
يدعونني الغيد عما ، تارة ، وأبا .

ولكنهن هناك محجبات . فلا أسف ولا بكاء . واني لخليق بحمد الله وشكره على أن بيض وجهي ولم يسوده كوجوه زملائي ... أعني الذين كانت لحاهم سوداء ، وقلبي أسف وأنا متحسر على عمري الذي أضعته في الاشتغال بالأدب . وأنفقته في هذا العبث الذي لا يجدي ؛ فان لحية واحدة بيضاء ترجح هناك بمائة كتاب من خير ما أنتجت العقول ، ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدي لا الكتابة والتأليف كلا ، فان هذا كله عبث بل معالجة لحيتي لتشيب .

ومشى بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه وراح يدعو وأنا وراءه ، وعيني الى لحيته النشيطة التي

كانت تتحرك مع الكلام ، وأقسم لقد نفستها عليه حتى لقد خطر لى أن انزعها عن وجهه وألبسها بدلا منه ٠

وقال بعد أن فرغ :

« صل هنا ركعتين »

قلت : « أين القبلة ؟ »

قال : « لا قبلة هنا ٠ كل مكان قبلة »

قلت « فهل أصلى دائرا حول نفسى كالكرة الارضية؟

ان هذا صعب فأرنى كيف أصنع »

فلم يفهم وقال :

« نصلى ركعتين فى كل اتجاه »

فاتجه لى رأيان أردت أن أستفتى فيهما ٠

ولكنى لم أجد من يفتى ، أو على الاصح لم أتوسم فى وجوه من حولى قدرة على الافتاء ، فأطعت وصليت ٠

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية يحمل سقفها عمد غليظة من خشب زكى الرائحة ، وهى مكسوة، ولكن الجزء الأسفل من جدرانها معرى ، وعليه ألواح من الرخام حفرت فيها كتابات بخطوط شتى ترجع الى عصور مختلفة تذكر أسماء من أصلحوها أو رمموها أو زادوا عليها شيئا أو فعلوا غير ذلك ، وبعض الكتابة كالطلاسم لا يقرأ ٠ وقد تعقبنى رجل يشرح ما على الجدران ؛ وكان

من الجلى أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم، فسألته وأشرت الى لوح ردىء الخط « ما هذا ؟ »

فقال : « هـــذا يا ســـيدى .. هـــذا .. أظنه خط .. آ .. أ »

فقلت : استعجله « خط من ؟ »

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال:

« نعم . المنتصر بالله المستنصر .. ايه ؟ نعـــم هو بعينه لقد عرفته . »

فقلت : « آه عرفت خطه ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « انه ردىء »

قال «نعم غير واضح»

قلت «هل كان صديقك ؟»

قال «صديقى ؟»

قلت «لعله كان قريبك ؟»

فحملق فى وجهى ثم قال «انه قديم جدا» .

فسألته : «الخط أم الرجل» .

فقال «كلاهما»

فقلت «شىء جميل ! وأين هو الآن ؟»

فقال بلهجة المستعرب أو الذى بدأ يشك فى عقل محدثه :

«أين هو الآن ؟ لقد مات منذ مئات من السنين» .

فسألته : «وهل كتب هذا بعد أن مات ؟»

فجذبنى أحد الزملاء فلم ألتفت اليه وقلت للدليل :

«أريد أن أبكى» .

وأخرجت المنديل ورفعته الى عينى فأقبل على الرجل يسألنى بلهفة .

«ما السبب ياسيدى ؟ لماذا البكاء ؟»

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر .

«أسفا على المستنصر !»

فجعل يطيب خاطرى ويؤكد لى انه فى وديعة الله وجنته . فقلت والدموع تنهمر من عينى .

«ولكنه مسكين ، فقد عمره كله» .

فأخذ يشكر لى عواطفى الرقيقة وشعورى الطيب فتسايلت عبراتى على خدى وأنا أقول .

«لو كان قد أدركك لما خسر عمره كله هكذا ، مسكين !»

وانتحب . فشدنى رميلى وقال .

«تعال ياشيخ !»

ولما عدت الى مصر . أقبلت أمى على تسألنى فقصصت عليها مارأيت ، ووصلت فى وصفى الى الكعبة فقالت :

«هل دخلتها ؟»

فقلت : «بلى . دخلناها بصفة خاصة» .

فقالت : «طوبى لك ! لاتخبر أحدا بما رأيت فيها . احذر» .

فسألتها عن السبب فقالت :

«أن من يرى الكعبة من الداخل لايقص على غيره مايرى» .

قلت : «ولكنها خالية ولاشىء فيها . كانت أشبه بمخزن الأوثان فى الجاهلية فأخلاها منها النبى عليه الصلاة والسلام» .

فقالت : «أبوه . خليك على كده . كل من سألك عنها تقول له لم أر شيئا» .

فقلت : « ولكنها حقيقة خالية »

قالت : « تمام مضبوط ، بارك الله فيك »

فقلت : « انى لا أكذب ولا أدعى : هى حقيقة كما أقول خالية »

فقالت « أيوه . تمام . أهو كده . الله يزيدك عقلا » .

فأمسكت ، ولم أرلى حيلة ، وهأنذا أقول للقراء ان الكعبة لا شىء فيها فليصدقوا ، وليكونوا كأمى ، وليدعوا لى أو فليضنوا على بالدعاء — كما يشاءون .

* * *

وقد كانت مصر ترسل الى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة دقيقة الصنع ، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز وثناء العالم الاسلامى عليها وحمده لها واعجابه بصناعتها ، وتبطل من جراء ذلك صناع الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن عن آبائهم وانقطعوا له ، وأنشأت الحكومة السعودية دارا لصنع الكسوة جلبت لها الاساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا أبناء الحجاز . وقد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ، ومن السجاجيد وما اليها ، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت مصر صناعتها القديمة البديعة ، وأصيب عمالها بالفاقة .

* * *

ومن الممكن أن أقول — ومن الممكن أن يصدق القارىء —

ان لحيتى طالت فى خمس دقائق أضعاف ما تطول عادة فى خمسة أيام ، وانى لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم بلحية جليلة طولها على الأقل شبر • وسأروى للقارىء ما حدث وأنا على يقين من أن مروءته ستدفعه الى مشاطرتى ذلك الغم الذى انتابنى لما أفلتت من يدى تلك الفرصة الفضية •

وشرح ذلك أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة الكعبة وسماع الدعاء — على بابها — لجلالة والده بطول العمر ودوام النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلنى عنها ما وقع لى ، وكان الجيش صفين فى الطريق من دار الحكومة الى الحرم ، وتلاميذ المدارس صفوفا فى فنائه ، وقيل جاء الأمير فنهضوا بنا الى الباب ، وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره حاشيته وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر ، فدفعونا اليه وفرقوا بنا الخلق الى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من استطاع أن يكون الى جانبه ، وآخرون ردهم الزحام وراءه حتى بلغنا الكعبة ووقفنا أمام بابها ، فأجلت عينى فى هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذى كاد يقصف لى ضلوعى ، فرأيت الشفاه تلعب ، فخفت أن يرى أحد شفتى ساكنتين لا تضطربان بشىء ، فظلت أحركهما بالفاتحة لعل الله ينقذنى ببركتها من الأزم الذى أنا فيه • وأشهد انها كانت أشد الفواتح التى قرأتها فى

حياتى بركة ، ذلك انى ما كدت أتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء ، ثم رأيت سابا ــ أو أنا أظنه ذلك ــ يرمى الى الداعى بعباءة رقيقة النسج جميلة ، فقلت لنفسى وأنا أحسد الداعى ، والله انى لأحسن أن أدعو بخير من هذا وبأجدى منه على الأمير ، ثم انى أرى دعائى مستجابا أيضا .

ولم أستطع أن أسترسل فى هذه الخواطر ، فقد قطعها على أن سادن الكعبة ــ وكان واقفا فى حاشيته ، أو لعلهم أبناؤه وأحفاده فى باب الكعبة ، فوقنا ــ تقدم خطوة وبسط كميه وانطلق هو أيضا يدعو ، فقلت لنفسى سيجىء دورى اذا ، فصبرا يا مازنى ، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات ، وقارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه ــ والمرء ، كما تعلم بأصغريه . قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه ــ فدعى بطول النصر والتأييد .. ولكن .. للحكومة العثمانية !!

فصحت : « ياخبر أسود ! »

ولم أملك نفسى فقرصت ذراع جارى وأنا أظنه زميلا لى ، وأدرت اليه وجهى متوقعا أن أقرأ فى وجهه تأييد صيحتى فراعنى :

أولا ــ أنه لم يكن زميلا لى ولا رجلا أعرفه أو أحب أن عرفه .

ثانيا ــ انه كان ينظر الى شزرا ووجهه من التقطيب كالأسفنجة •

ثالثا ــ انه كان يعرى ذراعه ويفحصه جيدا ، استعدادا للاكمتى كما توهمت ، فخطوت الى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى حاذيت الأمير ، ولا أكتم القارىء انى خفت ، فقد ايقنت ان قرصتى كانت أوجع لهذا الجار من الدعاء للحكومة العثمانية ، وأنا ــ كما لا يعلم القارىء وما يمكن أن يعلم بالتجربة ــ ماهو فى القرص ، ومزيتى انى أتناول « خيطا » من الجلد بين لحم أصبعى وأفركه بهما لا بأظافرى ، كما يفعل الاغرار والبلهاء ، فيكون لذلك كى ، وشى ، ولذع كلذع النار ، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لا يحتسبون •

وايقنت وأنا واقف ان سادن العكبة سيطير رأسه عن بدنه بضربة سيف ، وما على الأمير الا أن يغمز بعينه واحدا من عبيده أو يومىء له بأصبع فاذا الرأس يتدحرج على السلم ويهوى عند أقدامنا ، ولم تخالجنى ذرة من الشك فى أن هذا آخر عمر الرجل ، ونسيت ان الحرم كل من فيه وما فيه آمن ، وقلت لنفسى • مادام إن الرجل مقتول لا محالة ، فمن الخسارة ولا شك ان نذهب لحيته مع روحه وهى ستحلق له على كل حال بعد موته ، فما تكون المرء فى الجنة الا امرد ، ورفعت عينى الى وجه الأمير وقد وطنت نفسى أن أتقدم اليه ، بعد أن ألمح اشارة الاعدام راجيا

أن يأذن فى نزع لحيته واتخاذها لنفسى · وحولت عينى الى الشيخ سادن الكعبة فالاا واحد وراءه يجذبه من كتفه · فقلت : « آه ! لقد حم أجلك يامسكين ! سيقودونك الى الخارج ليقطعوا لك رأسك »

ولكن السادن خيب أملى ؛ ذلك أنه التفت الى من يجذبه ثم الينا وقال مصححا :

« بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية »

ضاعت الفرصة · خسرت اللحية · وسأخرج اذا كما دخلت وليس على وجهى سوى هذه الشعرات القصيرة، وأسفاه ! وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه على حين أمشى أنا بين الناس محروما كاسف البال ! وما لحية يضن على بها الأمير ؟؟ ان صاحبها لا يزيد بها كبرا ، ولا ينقص بغيرها عمره ، وقد لبسها دهرا طويلا فحسبه طول ماتمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحياة ، أن تخلع على ، أنا الذى ليس أحوج منى الى مثلها

وهبط قلبى ، وتدلى على صدرى ، واسودت الدنيا فى عينى ، وتهضم وجهى ، ونقص وزنى ، وتخاذلت رجلاى ، فلو أفسح الناس لى مكانا كافيا لتهافت الى الأرض وتهاويت كوما مفككا من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة ، وأدبر لحم خدى ، وظل يدبر ويدبر حتى بلغ

أصول الشعر ومنابته فبرز معظم الشعر الى الجذور ٠

ورفعت يدى الى وجهى فاذا بى أحس لحيتى قد طالت ٠٠٠ من الهزال !

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا

❊ ❊ ❊

وكر الأمير راجعا فكررنا معه نتدافع ونتزاحم ويستوقفنا رياض أفندى أمام الفوتغرافية فنتلمس رؤوسنا فرجة تظهر منها ٠ أمام العدسة ، وأشب أنا القصير المسكين ثم انحط يائسا ، حتى بلغنا الباب ، وكنا قد دخلنا من غيره ؛ فسبقنا الأمير الى دار الحكومة ، ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحذيتنا ، فلما صارت فيها أقدامنا بين صفوف الجند الى دار الحكومة : وراقنى منظر الجنود فى ثياب « الخاكى » وقلت باقون لتحيتنا ولا شك فقد مر الأمير فجعلت ألتفت يمينا ويسارا وأرفع يدى بالسلام فسألنى واحد

« على من تسلم ؟ »

قلت : « أريد تحية الجند يا أخى »

فصاح بى « أى جند يا أخى ؟ ألا تخشى أن يعدوا هذا تهكما منك ؟ أتريد أن توقعنا فى ورطة ؟ »

فمنحته أعذب ابتساماتى وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية ، وواصلت تحياتى وتسليماتى غير عابئ بهذه الغيرة !

وتوقعت أن تنقض الدار ، فقد كانت غاصة لا موضع فيها لقدم فلو رميت كرة صغيرة لظلت تنتقل من رأس الى رأس دون أن تصل الى الأرض ، بل لكان الارجح أن تصعد مع الناس الى الطبقة العليا وأن تدخل على الامير معهم .

وبعد لأي ما بلغنا غرفة الاستقبال ، وكان الامير واقفا فى الصدر وحوله الكبراء والجند والناس يتقدمون اليه ويصافحونه ، فاذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع — أى الوجيه — يده على كتفى الأمير وجذبه وقبل أنفه لأن الأنف أبرز شيء فى الوجه ، وقد وقف الامير كما رأيناه : مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا عليها قبل المهنئين ولمسات الداعين ، فلما جاء دورنا وددت لو أنه كان أمامه كرسى ! اذا لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك وعرفت سببه وتقصيت سره ؛ ولكنى كما تعرف ، فاكتفيت بأن تقدمت اليه فى تؤدة ووقار ، ويسراى تمسح لحيتى تنبيها اليها ولفتا لشيبها ؛ ويمناى تمتد الى يده وتقبض عليها .

والحق أقول ان سلام النجديين لا يعجبنى لأنه بارد لا حرارة فيه ولا روح ، والواحد منهم — أمير أكان أو غير أمير — يمد اليك كفا مفتوحة كأنها قطعة من الجبن الطرى لا عظم فيها ولا أعصاب لها ، فاذا تناولتها وقبضت عليها

لم يبادلك ذلك بل ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء ، ثم يسحبها في فتور وضعف ، فتخجل وتبرد الحرارة التى تناولت بها يده ، ويجمد الدم في عروقك .

وانصرفنا عن الامير بعد السلام عليه ، الى غرفة أخرى ذهبوا بنا اليها وهناك سقونا عصير الليمون ، ثم مالبثنا أن دعينا الى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنأناه مرة أخرى وأديرت علينا القهوة النجديه ، وأمرها عجيب ، ذلك انها خليط من البن والمرى والحبهان ولا أدرى ماذا أيضا ، وطعم البن يختفى بين هذه الاخلاط الحريفة ، ويجيئونك بها فى أبريق كبير من النحاس ، يحمله الخادم فى يسراه ، وفى يمناه الفناجين الكبيرة بعضها فى بعض فيصب من الأبريق مقدار رشفة فى الفنجانة ويقدمها لك فتقلب الفنجانة على فمك وتهزها لينحدر ما فيها بسرعة ، فاذا راقتك القهوة مددت يدك بالفنجانة فى صمت فيصب لك رشفة أخرى وهكذا والا هززت الفنجانة فينصرف عنك .

وقد كنت وأنا فى مجلس الأمير متعبا وكان رأسى أحسه ثقيلا ، وخفت أن أنام أنا أو اهوم ، فقلت أنبه نفسى بالقهوة ؛ فرجوت من الخادم أن يملأ لى الفنجانة فان هذه الرشفات الضئيلة لا تصنع شيئا ولكنه آثر عادته فذهب يصب لى رشفة بعد أخرى وأنا أناديه بعد كل واحدة وأرده الى ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن يذهب عنى فلا يعود ،

فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم الفنجانة وصاح وهو يمضي عنى ضاحكا « يارجل ! » •

فقمت وراءه وأنا أقول : « ما هذا الكلام الفارغ ؟ أريد قهوة حقيقية لا لونا فى الفنجانة ! تعال هنا ! »•

فأسرع الى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر •

قلت : « الخبر أنى أريد أن أشرب قهوة حقيقية ، وهذا الرجل يضحك على ويقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة لا يسيل ولا يصل الى حلقى منه شيء • هذا هو الخبر ـ ثم هذا لسانى (وأخرجته) بذمتك هل ترى عليه أثرا للقهوة ! » •

فقال الرجل : « لا عليك • تعال يا هذا • أترع له الفنجانة » •

وقد كان •

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا يجيئوننى بها فى كل مكان بقهوة حقيقية لا شك فيها ولا فى مقدارها ولا فى طعمها ولا فى أثرها • ولكنها سرقت النوم من جفونى ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة •

وعدنا الى دار الضيافة لنستريح فاتفق ان لقيت فى الطريق واحدا لم أشك فى انه نجدى وكان فوق نجديته قصيرا ، فأقبلت عليه وقلت هذه فرصة ، وقلت :

« كيف حالك ؟ ان شاء الله خير » .

وأهويت على كتفه فجذبتها على نحو ما رأيتهم يفعلون ومططت شفتى استعدادا لتقبيل أنفه ، ولكنى لم أحسن قياس الابعاد وعمل الحساب اللازم ، وجاءت الجذبة أسرع وأشد مما ينبغى فوقع فمى على فمه واصطدم الأنفان .

فلما أفاق من دهشته ، قلت له على سبيل الاعتذار، وأنا أتلمظ وامصمص بشفتى :

« لامؤاخذة ! لقد أردت أن أقبل أنفك ، ولكن التدريب ينقصنى . على كل حال الخيره فى الواقع . الســـــلام عليكم » .

وذهبت أعدو ولحقت باخوانى وهم يهمون بالعوده الى وقد توهموا لبلاهتهم اننا اشتبكنا فى مصارعة .



بين مكة والكندرة

اشتهيت وأنا جالس فى « دار الضيافة » ، أن أدخن « نرجيلة » أو « شيشة » كما يسمونها فى مصر ، ولست من هواتها ، ولكنى افتقدت منظرها فى مكة ، وكنا فى جدة ، كلما دخلنا فى بيت يجيئوننا بعدد من هذه النراجيل على أشكال شتى وحجوم مختلفة وألوان عدة ، فمنها ماهو من الفضة أو المعدن المنقوش أو المطلى بالذهب ، ومنها القصير والطويل ، والذى فيه صنعة والساذج الغفل ، والذى خرطومه من المخمل الأرجوانى أو الأخضر ، الى آخر ذلك مما لا موجب للتقصى فيه • وأهل جدة يستعملون للنرجيلة طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة أخرى لم أسمع بأسمائها من قبل ؛ تجعل له أرجا قويا وتترك المرء ــ على ماسمعت ــ يحلم •

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل فى جدة ، ولا أثر لها فى مكة • وخطر لى ــ على سبيل التعليل ــ أننا هنا ضيوف

الحكومة والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين ، على الأقل في حضرتها ، وفي دورها . غير انى لم أسترح الى هذا التعليل وقلت ان الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم أن يقترحوا علينا أن يجيئونا بواحدة ، فانا مصريون ، وما لا يجوز للمكى جائز للمصرى ، ثم انهم يدخنون السجاير فلم لا يتخذون النراجيل ، وكله تدخين ، وعلى ذكر السجاير أقول ان العوم في الحجاز لا يعرفون منها سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه ويصدره اليهم « ماتوسيان » . وقد يكون في رخصه شك ، ولكنه ردىء على التحقيق ، يتخذه السابق كما يتخذه الوجيه السرى ، فالديمقراطية كما ترى بخير هناك، وأبرز عناصرها وأقوى مظاهرها هو «ماتوسيان» .

وأعود الى ما استطردت عنه ؛ أعنى الى النرجيلة ، فأقول اشتقت أن اضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكىء بكوعى على حسبانة صغيرة وأن أضع رجلا على رجل وأدنى خرطوم النرجيلة من سفتى وأرسل الدخان الكثيف الى رئتى ومعدتى بل الى اخمص قدمى ، ثم أرده من فمى وأنفى وعينى وأذنى وأنفجر بالسعال القوى كأن بركانا انطلق من جوفى؛وأظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب اندلعت في جوفه نار الحريق ، كما رأيت أهل جدة يصنعون .

ولكنى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه

المتعة البريئة ، كما رضت شيطانى على الكف على ابتغاء الويسكى ، وآلمنى ذلك ـ كما يسهل أن يدرك القارىء بغير عناء ـ فرأيتنى أناجى نفسى وأعزيها بأن أهل جدة مدللون على خلاف أهل مكة ـ هناك ، أى فى جدة ، يجتلى المرء مظاهر الترف والنعمة ، ويحس ان للقوم دلالا على الحكومة ـ أو دالة اذا شئت ـ وان الحكومة توليهم من الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له منسبه فى مكة ، وتطلق لهم فى أمور نصيبها منها فى مكة التشدد • ولقد قضينا فى جدة أياما لم نشعر فى خلالها بأن للحكومة وطأة تحس ، ولكن أثر الحكومة ووجودها ملموسان فى مكة فى كل مكان •

وقد أكون أولا أكون مبالغا فى هذا الذى عزيت به نفسى عن حرمانى لذة النرجيلة ، ولكنى أعتقد أنى غير مخطىء جدا فيما شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة ومكة من حيث سلطان الحكومة ، فان قائمقام جدة أى حاكمها ، تاجر ؛ هو يجمع بين التجارة وبين أعمال وظيفته • وخليق بالمصرى أن يعجب لهذا وأن يرى فيه شذوذا عن المألوف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف أن يشتغل بالتجارة ، ثم أن من الحقائق التاريخية أن الجيش السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبث أو يتلكأ ، ولكنه لم يقتحم جدة بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب عليها حصارا خفيفا لينا لا يمنع أن ويتصل ما بينها وبين مكة • ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع

المؤن عن مكة ، ولكن من المحقق أن الدافع الأول الى ايثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة أن فى جدة قنصليات أجنبية ، وقدخشى السعوديون أن تصاب دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع احدى الدول بذلك وتتخذ منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه ، فبقى الجيش محيطا بجده شهورا حتى نفد المال وانقطعت موارده عن الملك السابق على بن الحسين ، وتأخرت رواتب الجند وفشا عليه الأمر ، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة بريطانية محتفظا من كل ماكان الذى نزل عنه « بسيارته وسجاجيده وخيله » ؟؟

وكأنى بوجود الأجانب فى جدة قد جعل لهـا مع الأسف مركزا خاصا وبسط عليها ضربا ملطفا من الحماية العامة وجعل الحكومة تتخذ حيالها مسلكا هو فى جملته ألين من مسلكها في البلاد الأخرى · ويقينى أنه لو كانت الحكومة السعودية أقوى مما هى وأوفر عدة وأتم سلاحا وأقدر على الدفاع عن شـواطئها وثغورها لاختلف الحال وتغير الموقف ، ومن أجـل ذلك يتوخى جلالة الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع ، وذلك ليتسنى له أن يصلح أموره ويرتب البيت ، كما يقول الافرنج ، ويعالج متنا كله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر مالا مفر منه من وجوه الاصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده ·

وقصدنا بعد أن استرحنا الى وكالة المالية ، ويتولاها نجدى ، قح ، قال لى المستر فيلبى أنه من أمهر الرجال

وأذكاهم وأحذقهم فى سـياسة المال ، وغرفه بسيطة وفيها مكتب أجلس أنا فى مصر الى واحد أفخر منه وأجمل ، وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن أن نصور معه ، ثم رغبت الحاشـية أن تصـور هى أيضا فكان لها ماأرادت . والنجديون يسمون الصورة الشمسية «العكس» ولا يرون فى التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع .

وفى وكالة المالية القيت خطب ترحيب — لا أذكر الآن بمن على وجه التحقيق — وتهنئة للأمير وجلالة والده بلا أدنى ريب . وهناك أيضا جىء باثنين من الحجازيين ، هما موظفان فى حكومته وعملهما طبع « طوابع البريد » ، فقدمهما الوكيل الى سـمو الأمير وأطلعه على نموذج من الطوابع التى عملت تذكارا لهذا اليوم — يوم المبايعة .

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتى مريض ، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية ، وأمراض النسـاء وغيرها ، وفيه أطباء مصريون ، وبئر ارتوازية حديثة تمده بما يحتاج اليه من الماء ، ثم قصدنا الى دار الكسوة التى اسلفت الكلام عليها ، ومن ثم الى التكية المصرية وهى تؤدى واجبا انسانيا جليلا .

❊ ❊ ❊

وجاء وقت الغداء فتناولناه فى دار الضـيافة على الطراز الأوربى أيضا ؛ ولشد ما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية أو البدوية ولكنهم فى الحجاز ابوا ذلك

علينا وضنوا بمتعته ، واحسبهم توهموا ان اطعامنا على الطريقة العربية غير لائق ، أو ان ذلك ينطوى الى شيء من الاستخفاف بنا ، أو هو ينافى ما يقتضيه واجب الاكرام.

ثم ذهبنا الى السوق ، وهو على المسعى . وقد كرهت ان أرى الدكاكين فى بناء الحرم نفسه ، وملنا الى حارة ضيقه شبيهة بخان الخليلى فى مصر ، وفيها كل ما فى الخان ، والتجار فيها خليط من اهل مكة والهنود والفرس وغيرهم ؛ وأكثر ما فى السوق هندى أو فارسى ، ودخلنا دكان هندى طويل له مساعدان ؛ فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرىء يتكلم ويطلب شيئا ويسأل عن ثمنه ، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن الى الهندى الطويل ، ولم يكن معى ولا مع زميل لى مال ، فقد خلفنا مامعنا فى جدة ، فاقترضنا من اخواننا ، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالذى يسهل فهمه ، ذلك أن الجنيه المصرى يساوى عشرة ريالات حجازية ، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا ، ولكن الاطراد يقف هنا ، فاذا ذهبت تحسب الجنيه بالقروش وجدته يساوى شيئا عجيبا : مائة قرش وبضعة قروش أخرى تكون تارة اثنى عشر قرشا وطورا أربعة عشر ، وما أظن به الا أن قيمته بالقروش تضطرب تبعا لحالة الجو ، فما فى مكة ولا فى جدة بورصة ، واذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطىء فالذنب للتجار وليس لى ، فقد كنت أجد

قيمة الجنيه عند تاجر غيرها عند ســـواه ، واتفق أنى كنت أتوغل فى السوق فألفيت القيمة تهبط بعـــد كل خطوتين قرشا ، فخفت اذا أنا مضيت فى طريق داخلا فى السوق ألا أدنو من آخره الا وقد صار الجنيه قصــاصة ورق كالمعاهدات الدولية ، بل خفت اذا أنا بلغت نهـاية السوق أن أجد أنى أصبحت مدينا !! لذلك ارتددت بسرعة ووليت خارجا ــ لا هاربا ــ الى أول السوق ، وفى يدى جنيه منشور ــ مما اقترضت ــ ألوح به للتجار وأصبح رافعا القيمة بعد كل بضع خطوات :

« ألادو ! ألاتريه !يابلاش ! بمـــائة وعشرين ! ألادو! بمائة وخمسة وعشرين .. »

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشترى مكة كلها بجنيهى ! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا فى وجهى يردوننى الى داخل الســـوق ويشورون فى وجهى كما يفعل الناس ليصـــدوا جوادا جامحا ! وتنبهت الحكومة الى الخطر المحدق بعاصمتهـــا فأقبل على واحد من كبار رجالها يقول :

« لقد ركب الأمير فهلم لتلحق به »

ولكنى كنت مشغولا بفرصة الغنى التى أتاحهــا لى ارتفاع قيمة الجنيه فى أول السوق وانخفاضه عند آخرها. فلم أعبأ به ومضيت أصيح :

« قبـــل أن نركب ! ألادو ألاتريه ! أبيع بمـائة وأربعين ! هل من مزايد ؟ بمائة وخمسين ؟ »

فجذبني الرجــــل وفي وجهه كل أمــــارات الفـزع والارتياع وصاح بي :

« يا أخي أجول لك ! الأمير ركب ! يجب أن نلحقوا به لأن المسافة طويلة » •

فأدركت أنه يريد أن يصرفني عن ربح حلال وقعت عليه بذكائي ، فنحيته عني وانطلقت أعدو الى أول السوق ثم وقفت ألهث وقدرت في نفسي أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش ، وهممت باستئناف المناداة واذا بالقوم يحتملونني ويضعونني في السيارة ! وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت ، فقعدت وأنا أقول لنفسي : « ان هذا ليس من الانصــــاف في شيء ! وسأظل ما حييت أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت علي وبالتعويض أيضا ! ولن يضـــيع حق وراءه مطالب » • وغلبني النعـــاس في الطريق الى جدة واستغنيت بالأحلام عن حقيقة ما فاتني — كدأبي أبدا •

***

والكندرة قصر على دقائق من جدة ؛ وفيه نزل جلالة الملك عبد العزيز لما سلمت ؛ واستقبل أعيانها وممثـــلي الدول فيها قبل أن يدخل جدة في اليوم التالي ؛ وفي هذا القصر أقيمت حفلة الشاي التي حضرها الأمير وسبقنا سموه اليها ؛ ولا عجب ؛ فان سموه يركب الرولزرويس ولا يتلكأ في الأسواق ولا يريد الغنى من وراء اضطراب قيمة الجنيه بين التجار ، ونحن نفعل ذلك — ولنا العــذر — ونركب

سيارة يأبى سائقها « صابر » أن يسرع بها لئلا يفسدها لأنها جديدة ، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنبلي جدا .

ولا حاجة بي أن أقول شيئا عن الشاي فانه كـكل شاي ، وقد شربناه واقفين ــ كل نحو عشرين الى مائدة منقلة بأباريق الشـاي واللبن وألوان الفطاثر والملمائز والولائق والرصائع ؛ وكان ممثلو الدول يحفون بالأمير ، والقائم بأعمال المفوضية البريطانية ووزير الروسيا المفوض يتنافسان على الحظوة عنده ويتسابقان الى اكتساب وده ؛ أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أهم في الحجاز سوى بطوننا . فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء، وقد حمدنا لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بالحاحهما عليه ومطاردتهما له .

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش ، في الفضاء الذي أمام القصر ، ووقف سمو الأمير وأدنانا من صـفة لتتيسر الرؤية ، فمر المشـاه النظاميون في ثياب الخاكي ومعـهم أسلحتهم المختلفة ؛ ثم تلاهم من سميتهم حينئذ الباشبزوق وأنا أعني بهم البدو؛ في ثيابهم الفضفاضه المختلفة الألوان؛ وكانوا على كونهم بدوا يمشون صفوفا منتظمة ، وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجانة صفوفا متراصة لا تلتوي ولا تتعـرج ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جمـل جمـلا ، وعليهـا ، « الرجاجيـل » كما يسمون « الرجـال » مثقلين بأدوات الكفاح ، وأعقبت هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو للميدان أو غير ذلك مما لا أحسن بيانه

وتعصيله ، فما أعرفنى رأيت من أنواع السلاح الا ما يلعب به الأطفال فى الأعياد ؛ ولقد كنت فى الحجاز كلما رأيت رجلا مدججا بالسلاح أدنو منه وأمد يدى ؛ وقد هممت أن ألمس سلاحه وأتحسسه بكفى ــ فلو لا الخوف من أن يظنوا بى انى أريد السرقة أو الخطف ؛ لأمتعت نفسى بلمسه ٠

وابصرنا من بعيد محملا صغيرا مقبلا علينا فعجبت لهم كيف يعدون المحمل المصرى سنما ثم يتخذون محملا مثله ! وأشار الأمير بيده اشارة خفيفة لم يدرك أحد منا وقتئذ معناها أو المراد بها ، وحسبناها أمرا بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون فى الحرب ، فقد عادوا واحدا فى أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو شهروا السيوف ، وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم مفزعة ، ولو رآهم القارىء وهم يعدون بجيادهم ويطلقون البنادق من وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحرابهم وشعورهم منفوشة لحسبهم بعض الجن ٠

وصفق الناس والتفت الأمير باسما ودار ليرجع فسألت واحدا ٠

« والمحمل ؟ لماذا نره ؟ » ٠

فقال : « لقد غاب » ٠

قلت : «غاب كيف ؟» .

قال : «لم يبق له أثر» .

قلت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أمر سموه به فأبعد » .

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن انقطع المحمل المصرى ، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمحه الأمير أومأ الى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومزقوه . فكأنه لم يكن !

الى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقا فى مجاملتنا ومراعاة احساسنا .

***

وقيل : اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو ادارتها ؛ وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها ؛ وان ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك . فسألت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى ؛ فتناولت ورقة وقلما وألقيت نظرة على ساعتى الافرنجية وشرعت أحسب ، ولا أكتم القارىء انى أخيب خلق الله فى الحساب ، ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة — منذ نحو عشرين سنة — فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب ، فاعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئا ،

فقصدت الى « ناظر » المدرسة الخديوية التى نقلت اليها — وكان انجليزيا — وقلت له : « ان وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرىء يصلح لكل شىء ؛ ولكنى أعرف من نفسى أنى لا أصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب خاصة؛ وأصارحك أنى لا أصدق أن واحدا فى واحد يساوى واحدا « هذا » كما يقول شاعر عربى « كلام له خبىء : معناه ليست لنا عقول » وقد تكون أو لا تكون لنا عقول ، هذه مسألة خلافية ندعها الآن ، ولكن المحقق عندى أن العلوم الرياضية وفى جملتها هذا الحساب لا تدخل فى دائرة عقلى ، فهل لك فى عونى على ما أريده ؟ » .

وضحك وقال . « وماذا نبغى ؟ » .

قلت « تعفينى من التدريس للفرق العالية ، وتقنع بأن تكل الى التلاميذ الفرقة الأولى ، أعنى الحاصلين على الشهادة الابتدائية فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ الدرس أولا ؛ ثم ألقيه عليهم ؛ فنتعلم معا ؛ وفى خلال ذلك تبذل وساطتك لتردنى مدرس ترجمة كما كنت .

فسرنه صراحتى ووعدنى خيرا ، وشرعت فى العمل ، وكنت أحفظ الدرس جيدا وأراجع زملائى ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ما حفظت ، وقد وفقنى الله فى الهندسة والجبر ، أما الحساب فأعوذ بالله منه !! كنت أخطىء فى كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم أكن أكتمهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى ، وأن الوزارة هى

المسئولة عن خلطى وتخبطى ؛ وانصف التلاميذ فأقول انهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وحفونى بعطفهم ولم يبخلوا على بايضاح ما يشكل على وبهدايتى الى الصواب حين أضل؛ وكنا أحيانا — اذا استعصى عليهم افهامى طريقة الحل — نمضى بضع دقائق فى ندب سوء حظى وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف على والمرثية لى « كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ الشنيع فتعهد الى تدريس العلم الى جاهل به ؟

فيحمر وجهى أو يصفر — لا أدرى فما كانت أمامى مرآة — وأقول بلهجة الصابر على قضاء الله فيه ٠

«أنا عارف ؟ قل لها يا سيدى ! الأمر لله والسلام» ٠

ولم ينقذنى الا مفتش انجليزى جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته ، وكانت مجاورة للغرفة التى أنا فيها ، فأوصيت الخادم — أو الفراش كما يسمونه — بأن يدعوه الى ،حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فلما دخل على رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به الى مقعدى ومكتبى ؛ وهناك سلمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء ، وأصبع الطباشير وممسحة السبورة وقلت له :

« التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتى وأدواتى فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وخرجت ، فجرى ورائى وأدركنى أمام غرفة الناظر وقال :

« ان هذا جنون • فعد الى فرقتك » •

فقلت « جنون ؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا ؟ لقد صارحتكم مائة مرة بأنى حمار ؛ فماذا تريدون ؟ ان لى ذمة ، وذمتى لا تقبل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم » •

قال « ولكنى أكدت لك أننا لا نجد مدرسا للرياضة فيحل محلك • فانتظر حتى نجد واحدا ثم نعيدك الى الترجمة » •

فقلت : « كلا ! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس • وأنا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش » •

فضحك ؛ وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا ولا أطيل : اقنعانى بالعود الى فرقتى على ألا يطول عذابى الا أياما معدودات ؛ وقد كان •

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرنى القارىء اذا كان قد عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الافرنجى ، ولقد ملأت والله الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الافرنجى فى الحجاز اذا كانت الثالثة بالحساب العربى فى الحجاز أيضا ، فالفيتها تكون كل ساعة ما بين الأولى والرابعة والعشرين الا التاسعة مساء كما زعموا ، وقد اتفق مرة أن أنتج حسابى الساعة التاسعة ولكنها كانت التاسعة صباحا ! فمزقت الورقة يائسا ورميت القلم من النافذة •

وملت الى واحد وهمست فى أذنه ٠

« أرجو أن تصدقنى ! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة ؟ » ٠

فأخرج ساعة ونظر فيها وقال « ساعتان ونصف » ٠

فقبلته بين عينيه وقلت له « انك آية من آيات الله فى الذكاء وحدة الذهن ٠ ولو كان الحسد فى طبعى لحسدتك ٠ فان من المدهش ولا شك أن تستطيع عمل كل هذا الحساب المضنى فى ربع ثانية ! فتح الله عليك ! فتح الله عليك ! » ٠

وخرجت أعدو الى غرفتى ووقفت أمام المرآة وقلت لخيالى فيها ٠

« اسمع يامازنى ٠ ان هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء الدول وقناصلها فينبغى أن تكون فيها فخرا لبلادك وعنوانا على ما بلغته من الحضارة والرقى ، لا عارا عليها وسبة لها ؛ فالبس ثياب السهرة وان كانت من طول ما طويت فى الحقيبة قد تجعدت وتثنيت وصارت كالوجه الذى غضنته الشيخوخة ؛ ولكن هذا حرى بأن يغتفر فى الحجاز ، وعندك فى هذه الحقيبة كتاب فى آداب السلوك فى المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة ؛ فان فى ساعتين الكفاية ، أفهمت ؟ اذن فالى العمل ! » ٠

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها

بسرعة وأخرجت بذلة « الاسموكنج » والقميص الأبيض والرباط الأسود ، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة ، ونضوت ما على بدنى من الثياب، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه وأنا نصف عار وأجريت عينى فى الفهرس حتى استوقفنى هذا العنوان :

« فن الانحناء »

ففتحت الصفحة التى يشير اليها الفهرس وقرأت وانا كالمسحور ، ماترجمته .

« ان الانحناء ، ولمن يكون وكيف يكون وفى أى وقت يكون ؛ فن قائم بذاته ؛ « واتقان ذلك وتجويده ، والحذق فيه والأستاذية ، أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب » .

فخفق قلبى طربا وشاع فى السرور علوا وسفلا ، وبعد أن قضى بدنى وطره من الوثب والقفز - أو الرقص اذا آثرنا الرقة فى التعبير - عكفت على الكتاب لالتهم منه هذا الفن الجليل فقرأت .

« وأول ما يجب على المرء ، أن يكون وضع القدمين كأول وضع لهما فى الرقص » .

فكفأت الكتاب على ركبتى وذهبت أحضر الى ذهنى وأتمثل هذا الوضع الأول فى الرقص ؛ فطافت برأسى صور شتى للاقدام كما كنت أراها فى المراقص المصرية ، غير أنه

ما من صـورة كانت تشبه الأخـرى ، فألححت على خيالى وكددت خاطرى وحصرت ذهنى فى هذا الموضوع وطردت عنه كل ما عداه حتى صـار رأسى وليس فيه الا أحـذية « ضـاحكة اللألأ » تروح وتجىء وتنسـاب تحت السيقان الـ . . . . » .

وخفت أن أترقى فى التصور من الأحذية الى ما فوقها فيتم فساد العمرة التى أفسـدها المطوف وأشياء أخـرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول .

ثم قرأت .

« وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب ؛ ثم يحنى الرأس ويليه الجسم مما يلى الردفين وتكون اليد اليمنى فى أثناء ذلك ترسـم «فى الهواء خطا مقوسا بلباقة وأناقة» ؛ ومما ينبغى توخيه والتدفق فيه والحرص عليه أن « يكون تعبير الوجه فاتنا على قدر مايستطيع صاحبه ، ونظرة العينين سابية ساحرة. « أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذى له التحية » الخ الخ ..

وطويت الكتاب وأطرقت ، فمـا كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملا معقدا الى هذا الحد ! ومن لى باللباقة ومن أين أجىء بالرشاقة اذا وسعنى أن أؤدى هذه الحركات؟ ان كل ما أحسنه هو أن أهزز رأسى متتابعا ـ من أعلى الى أسفل ، أو من اليمين الى اليسار ـ اذا أردت الاعراب عن

الموافقة أو المخالفة كسلا منى عن النطق بنعم أو لا ، وقد ألاقى فى الطريق بعض من أعرف وتكون بينى وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول لن أومىء اليه برأسى واذا به يتجهم ويحدجنى بالنظر الشزر ، فأعجب لسوء أدبه فى رد التحية ، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهز رأسى بل أحرك حاجبى فكان الناس يحملون هذا منى على محمل السخرية ولو علموا لعذروا ٠

وقلت أتدرب ؛ فوثبت الى قدمى واستويت واقفا أمام المرآة وقلت وأنا ابتسم لخيالى فيها وانحنى :

« يا سيدى الأستاذ المازنى انى أحييك وأؤكد لك انى خادمك المطيع وأدعو لك بطول العمر » ثم اعتدلت بسرعة فقد شق على منظرى ؛ وكنت لا أزال نصف عار ، وعجلت بارتداء الاسموكنج حتى اذا فرغت من ذلك خرجت أتخطر وأنحنى بعد كل خطوتين أو ثلاث انحناء عميقا كأنى ماثل بين يدى ملك الملوك على الأقل أو أفتن امرأة فى العالم واذا بطربوشى تكبسه على رأسى بطن الخادم فتراجعت قليلا لأفسح لنفسى ورميت اليه انحناءة عميقة وقلت وعلى فمى ابتسامة لم يخالجنى شك فى عذوبتها وسحرها ٠

« سيدى انى أعتذر وأحيى فى شخصك فضائل الطاعة والاخلاص والأمانة » ٠

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصبب العرق البارد من جبينه وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذى يبحث عن نافذة

يشب منها حتى اذا وقعت عينه على الباب ؛ ولى هاربا ؛ فتلبثت ... هنيهة أصلح من شأنى وأرد طربوشى عما جار عليه من وجهى ولما لم أجد أمامى أو معى احدا من خلق الله استقبلت الباب وألقيت . اليه انحناءة بارعة واذا بأصوات من خلفى تصيح بى :

« ايه ده بس فى عرض النبى ؟ طلعت البلا على جتة الخـــدام » .

فدرت على عقبى وجدت عليهم بانحناءة متقنة وقلت وأنا أرسم بيمناى قوسا مزدوجا :

« سادتى . انى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى الأمـــين » .

فقال أحدهم وهو يشور بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشا من الذباب .

« خادم ايه وزفت ايه ؟ هل جننت حتى تنحنى للباب وللخدم والهواء ؟ ما معنى هذا ؟ » .

قلت « عفوا ، ولكننى أظن المعنى واضحا جدا . وكل ما فى الأمر أن الشوق الى الانحناء لج بى ولما أجد خيرا من الخادم أو الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون اطفاء حرارة الشوق الذى أكابده ؛ فأما وقد تفضلتم على بالظهور لى فى الوقت المناسب فاسمحوا لى أن أقوم بتجربة أخرى على مرأى منكم وأرجو أن تجعلو بالكم على الخصوص — الى سحر ابتسامتى فانى أريد أن أطمئن عليها » .

ورددت قدمى اليسرى خطوة ورميت الى كل منهم انحناءة باهرة ، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفا وقال أحدهم .

« هذا جنون مطبق » .

فقلت « كلا ! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه ان الانحناء البارع أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب . وانا مستعد أن أعيركم اياه فان العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق » .

ولا أطيل . عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين برهة ثم نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقال لى قبل أن يدخل الخادم .

« لا أدرى من أين تجىء بهذه الكتب ، وان كنت عظيم الشك فى وجود كتاب كهذا ؛ ولكن الذى أريده أن الخادم قد ارتاب فى عقلك فأرجو ــ ألح عليك ــ أن لا تفعل أمامه شيئا وكفى ما فعلت » .

فلم أعلن بالرد عليه وشربت القهوة التى طلبتها فى صمت ، فقد كنت راضيا عن نفسى معتزا بما أحرزت دونهم من براعة وحذق .

***

والجو فى الليل يبترد فى جدة ؛ وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء (بالحساب الافرنجى) على ما زعموا

حين أعدت لنا السيارات لركوبها الى الكندرة ، فقلت لسائقنا الجديد وكان هنديا ـ فقد هجرنا صابر وملنا وجفانا بعد مكة ـ وأنزل الغطاء فانى أريد أن تكون السيارة مكشوفة » •

فصاح زميلى «ولكن الجو بارد والرياح عنيفة» .

فقلت « اسكت انت من فضلك • أتريد أن تحرم أهل جدة منظرنا فى ثياب السهرة ! انه منظر لا يرونه الا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ، وحرام علينا أن نضن به عليهم » •

فقال « يا أخى ان الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر ، فاصنع معروفا ودع الغطاء مرفوعا» .

قلت « كلا أنا أيضا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة ، وليس من الانصاف لى أن أرتديها وأتحمل عذاب هذه البنيقة (الياقة) الناشفة وأن أختفى وأتوارى عن العيون • اذا لماذا تجشمت كل هذا التعب ؟ » •

ولا أحتاج أن أقول ان زميلى فى السيارة اقتنع بسداد رأيى •

واننا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جدة الى الصحراء فى طريقنا الى الكندرة ؛ ولم تكن المسافة طويلة فقد كنا نرى أضواء القصر بعد أن جزنا سور جدة ، وكان القصر يعب بالناس ويزخر بالضيفان ، فجعلت أطوف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب أين ترى سنأكل

وليس فى القصر شبر خال؟ وضحكت فى سرى وقد تذكرت قول المتنبى فى كافور ·

جوعان يأكـل من مالى ويمسكنى
كيما يقـال عظيم القدر مقصود !

وخطر لى أن هذا حالنا ! ندعى مئات الى القصر ونحجز فيه ولا طعام واستحييت أن أسأل وأنسـانى القلق على العشاء ؛ والخوف من عض الجوع ، ما أتعبت نفسى حتى مهرت فيه ـ أعنى الانحناء ـ ولكن وجهى كانت مرتسمه عليه ابتسـامة تشـجع الناس على المصـارحة فدنا منى واحد وقال ·

« ألا تحب أن ترى مكانك من المائدة ؟ » ·

وهنا تذكرت الفن الذى حذقته فتراجعت وانحنيت ثم استويت وقلت :

« سيدى · انى تحت أمرك » ·

فحملق فى وجهى وتلعثم . ولا عجب فما له عهـد بمثل هذه الأستاذية ؛ ولم يزد على أن قال « تفضل » ·

فجدت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت :

« سيدى · انى أرجو أن تتقبل شكرى الخالص الذى يفيض به قلب يعرف الجميل ولا ينكره و ··· » ·

فهرول الرجل ، وبدا لى أن الحزم أن أهرول وراءه

لئلا يهرب أو يختفى فى الزحام ؛ والدنيا كما تعلم فرص ، والضيوف هنا مئات ، وأى طعام يمكن أن يكفى هؤلاء جميعا ؟ .

وانحدر دليلى الهارب ، من سلم خلفى لم أره من قبل. ولم أفطن لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه ؛ وانحدرت وراءه الى الصحراء ، أو على الأصح الى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج من نسيج الخيام الموشى. وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضا على سبيل الاحتياط ؛ ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا المدعوين بأسمائهم ، فلكل مكانه الذى لا يعدوه ، واعتدوا لكل واحد ما يحتاج اليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك على الطريقة الأوربية ؛ وأقاموا فى قلب المستطيل فوق بئر يسقى منها القصر، شبه مسرح زينوه بسعف النخل ورفعوا عليه صورة كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود ، وجعلوا فوقها رايتهم وهى « بسم الله الرحمن الرحيم » وعليها سيفان لا شك انهما ماضيان . وقد أعجبنى ذوقهم فى حجب البئر عن العيون وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها .

وآن أن يطعمونا ؛ وكان هذا قد آن جدا قبل ساعة ، فجلس سمو الأمير فيصل فى الصدر والى يمينه معتمدو الدول الأجنبية ؛ والى يساره زكى باشا ونحن نتلوه ، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء الحجازيين ، وتوسط فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية ضلعا آخر من

المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفى جملتهم قنصل مصر وان كان غير معترف به ؛ وهم يدعونه بصفة غير رسمية الى الحفلات ومآدبها على الرغم مما بين البلدين من الجفوة الحكومية المتكلفة التى لا مسوغ لها ٠

وكان أمـــام كل نحـــو ثلاثـة من الضـــيوف ـ فوق المائدة ـ كرسى واطىء عليه طشت كبير غاص بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيب وما الى ذلك وفوق هذا كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية وتتضوع الى أنوفنا فننظر الى الأمير فلا نراه يمسه فنكف ونتنهد ، وقد طافوا علينا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظظنا جدا ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت لنا كروش كروية عظيمة ، وعلى كثرة ما أكلنا ؛ أعترف انى قمت متحسرا على الخروف الذى كان أمامى ، ولا أدرى لماذا يذبحون كل هذه الخراف الجميلة ويحمرونها اذا كانوا لا يأكلونهـا ولا يدعوننا نصيب منهـا شيئا ؟ قد خامرنا الشك فى انها خراف حقيقية كانت قبـل سـاعات تثغو وتقول « مآء ! مآء ! » وقلت لعلها رسوم مجسمة على صور الخراف ، ولكنى لم أر أثرا لهذا الفن فى الحجاز ٠

ويخيل الى أن حكومة الحجـاز تعتقد أن ضيوفهـا شرهون ؛ والا لتوخت بعض القصد فيما قدمته من صنوف الطعام ، فان ما أدبر علينا كان يكفى أمة بأسرها ، على أن العرب جميعا يبالغون فى مقدار ما يطعمون ضيوفهم ، ولعل ذلك راجـع الى طبيعـة البـداوة وما ورثوه من أخلاقهـا

وعاداتها ، لكنه اسراف على كل حال ، ولو كان لى من الأمر شيء لطلبت الحجر على الحكومة والناس جميعا هناك ٠

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز ، فبين ما قامت به الحكومة السعودية من الاصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة ؛ ورحب بالمدعوين جميعا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب وأعرب عن أمله أن نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين الشقيقين ، فأجابه زكى باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى ثم حمس فانطلق يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب ، ولم يفته أن يشنع علينا لأنا طفنا بالسيارة متخذا هذا دليلا على أن الاسلام يتسع لكل ما تجيء به الحضارة ؛ ونسى — عفى الله عنه — ان طوافنا بالسيارة كان باذن سمو الأمير فعلى الأمير حسابه ٠



فى وادى فاطمة

كان بيتنا أعنى بيت العوينى — فى طرف المدينة — أعنى جدة — أو لعل هذا مبتداها فما أعرف أين بدايتها وأين نهايتها ، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية الى طريق مكة والمدينة ، وأنه — أى البيت لا الطريق — يطل على البحر وعلى ما كان فى عهد الأتراك يسمى « الكازينو » ، وهو الآن مهجور ، وكان يومنا الخامس هو الخميس ، وهو اتفاق لم نتعمده ، وفى صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا اذ كنا على طريقهم ، وكان الغداء فى وادى فاطمة ، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتلف وتصطف استعدادا للسير ، فجلسنا نشرب القهوة المصرية — أو التركية كما يسمونها — ونتلاغظ ونتكلم جميعا فى وقت واحد ولا يصغى أحد منا الا لنفسه .

ثم قيل : « تفضلوا » فتفضلنا ، أعنى أن بعضنا وقعوا ثم نظروا الى البــــاقين فألفوهم جلوسا ، فقعدوا مثلهم ؛ فسئلوا « لماذا قعدتم ؟ » فقالوا « حتى يقــــوم هؤلاء » فمضى الداعى يستنهض الآخرين ويتسد اذرعتهم وهم معرضون عنه ماضون فى كلامهم ، ويكرر لهم دعوته أن يتفضـــــلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعى ما يفعل ، ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا يثنى عن الأعراض ، ثم نسير خطوات فيقف واحد ويواجه الباقين ويضطرهم الى الوقوف والاصغاء ، حتى على الســـــلم كان هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون ان يقف واحد بغتة ويدير الينا وجهه ، وتكون أرجلنا مهياة فى هذه اللحظة للهبوط وأجســـــامنا محنيه ؛ فنردهـــــا ــ أعنى أرجلنا ــ بسرعة ، ونستوى واقفين فتصطدم الرؤوس بالصدور التى وراءها ، وترتفع الأصوات بالســـــخط والفاظ الاحتجاج والاستهجان .. وهكذا ..

وأجلت عينى فى الســـــيارات وســــائقيها ، فاذا (صابر) ــ ذلك الغلام الحنبلى ــ قد جفانا وآثر علينا ســـــوانا ، فترقرق الدمع فى عينى وتدلى رأسى على صدرى ، فقد كانت صحبته رضية وحديثة شهيا ، وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم ان صح هـــذا التعبير ، أعنى أنه أدرك جاهلية الحســـــين وعهد ابن السعود ، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنة وكياسة لاتكون مع الشباب ، وعلما بالدخائل واطلاعا على الخبايا ، فقد

كان كما أسلفت القول فى موسـيقى الحرس الخاص بالحسـين وبنيه ، وهو الآن عامل فى شركة القنـاعة للسيارات . غفر الله له وعفا عنه فانه مصرى مثلنا .

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات . وعزائى أن سائقنا الهندى لا يعرف الطريق – ولا العربية – وأن (صـابرا) الذى هجرنا ، أمره – لا أدرى بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما – أن يتبعه ولا يسبقه ، كذلك قال لنا صابر مترجما ، فأدركت أن فى (صابر) رقة على الرغم من حنبلية مظهره .

والطريق الى وادى فاطمة هـو عين الطـريق الى مكة ، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح بعد ذلك وعرا ، كله حفر ونقر وصخور وتراب ، وكان الهواء قد أسكرنى فنمت ومن عادنى اذا كربنى هم ان التمس السلوان فى النوم ، وان اتعزى بالأحلام واضغاثها عن الحقائق ومرارتها ، وهذا من فضل الله على ، ولكم قلت لمن يحلو له أن يهجرنى ويحسب أنه بذلك يعذبنى « اذا كان فى وسعك ان تصد عنى فان فى مقدورى أن اصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر » ثم اضع رأسى على الوسادة وأغمض جفنى وأقول بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام ، وأهب من فورى الى وادى الأحلام .

ولكنا لم نكد نميل عن طريق مكة المهـد حتى

استيقظت والشرر يتطاير من عينى ، فقد توهمت أن زميلى ضربنى على راسى وكبس طربوشى على أذنى ، وهممت بأن أمسك بتلابيبه — أعنى بربطة رقبته — وفى نيتى أن اضيقها على عنقه حتى يختنق ، ولكن الطريق عاجل السيارة بحفرة اخرى ، واذا بى ارتفع عن مقعدى — وحدى بلا معونة — واطير بقدرة الله حتى ابلغ السقف، ثم انحط كالحجر ، واذا بطربوشى قد غطى عينى أيضا وهوى الى أرنبة أنفى • ففهمت • وحاولت أن أخرج راسى فلم أستطع ، فشددت الطربوش من زره ، فبقى الطربوش فى مكانه وخرج الزر فى يدى ، فأهبت بزميلى الراكب معى أن يساعدنى • وكان لسوء الحظ نائما ، وكنت أنا بفضل الطربوش لا أراه ولا أعرف ذلك فحسبته يتعمد أن يمنع عنى معونته ، وغاظنى هذا منه ، وذكرت مثلنا المصرى العامى القائل « ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة ، خسرانة » فتوكلت على الله ونطحته فى كرشه — فقد كان ذا كرش كما نسيت أن أخبر القارىء — فهب مذعورا يقول « بع بع » واندفعت كلتا يديه الى كرشه فوقعت على الطربوش — وكنت أهم بنطحه مرة أخرى — فتزحزح الى آخر المقعد اتقاء للنطحة ، واحسست أصابعه على حافة الطربوش مما يلى أذنى ! فجذبت راسى الى الوراء فجأة وبقوة فخرج الطربوش فى يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له .

« أشكرك يا صديقى • والآن هل معك دبوس ؟ »

فصاح بى « ما معنى هذا ؟ أريد أن أفهم ! حالا ! »

قلت « معنـــاه ان زر الطربوش فى يدى ، وأنه لا يليق أن أبدو للناس هكذا — أعنى بغير زر ، فهــات دبوسا واكسب الشكر من صديقك » .

قال وهو مقطب « ولكن هذا لا يليق . واذا كنت حضرتك تظن .. »

فقلت أقاطعه « تمام . لا يليق أبدا . ولذلك أرجو أن تعطينى دبوسا . ثم ان اســـمى ابراهيم أفنـــدى عبد القادر المازنى » .

فقال وهو بمط شفتيه اشمئزازا .

« يعنى حضرتك فاهم ... »

فأسرعت الى اتمـــام الجمـــلة بدلا منه « .. انى لا أستطيع ان أظهر بطربوش ليس له زر ، بالضبط ، واسمى ابراهيم أفندى عبد القادر المازنى » .

فشور بيديه كلتيهما وقال « أوه ... ! ده شيء يجنن ! » .

ثم عاد فالتفت الى وقال :

« يعنى ازاى حضرتك تنطحنى ؟ عمرى ما شفته كده ! دى رحلة زى الزفت ! »

فقلت « انى أراها على عكس ذلك .. أجمل رحلة قمت بها فى حيـــاتى ، وأرجو أن نقوم بها مـعا مرة أخرى » .

ويظهر انه يئس وفوض أمره لله ولســـوء حظه فأعرض عنى وهو يقول :

« ابق دور على غيرى » .

فقلت « ان شاء الله وان كان هذا من دواعى اسفى ــ أعنى فى المستقبل ، وفى أثناء ذلك أرجو أن تعطينى دبوسا » .

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه ونقمته وصاح :

« دبوس ايه يا أخى ؟ هو انا دكان مانيفاتورة ؟ و لا حضرتك بتتريق ؟ فقلت « معذرة . ليس بى حاجـة الى الدكان كلها . انما اريد منها دبوسا واحدا ــ أو ابره اذا أمكن ، بل الابرة خير ، وارجو أن تذكر ان اسمى ابراهيم أفندى عبد القادر المازنى » ..

فضحك اخيرا بعد ان أدرك مرادى وقال « طيب وحياة أبوك تبعد عنى بقى يا ابراهيم أفندى يا عبدالقادر يا مازنى » .

فانصرفت عنه الى السائق واشرفت عليه من ورائه

لأرى هل فى صدره دبوس أو نحو ذلك . ففزع الأبله واضطرب وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا فى حفرة لولا ان اسرعت ومددت يدى الى العجلة وحولت السيارة عنها — أعنى عن الحفرة .

ولا أطيل . اضطررت ان احمل طربوشى فى يدى . وأن أشكو حرارة الشمس ووقدتها حتى وجدت من يعيرنى دبوسا أصل به الزر الى عنق الطربوش حتى نعود الى جدة .

ووادى فاطمة واد — كما هو ظاهر بالبداهة — ولكنه غير ذى زرع كثير ؛ فيه نخيل وأعناب ؛ وفيه موز وباذنجان ، وطماطم وليمون ، وملوخية وبامية ، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله عين يترقرق منها الماء ويجرى فى مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر مجهود ان يتخطاه من جانب الى جانب ، واذا وضع يده فيه اى فى الماء — لم تبتل الا عقلة واحدة من أصبعه ، وهم مع ذلك يباهون به ويعتزون ، وقد هززت رأسى أسفا حين رأيته — أعنى الماء — وقلت لواحد كان واقفا الى جانبى وأنا أقوم بهذه التجارب : « ان لنا فى مصر نهرا عظيما ينبع فى جبال القمر على قول ، ومن الجنة على قول آخر اظنه الصحيح ، ويقطع فى طريقه الى البحر الآف الفراسخ ، وتستطيع الأساطيل الضخمة ان تغرق فيه اذا شاءت ، ومع ذلك لا يكفينا ولا نقنع به ، ولا تزال

بلادنا أكثرها صحراء بلاقع كما هى هنا . فالحق ان بلادكم أو على الأصح فدافدكم ، تعلم الزهادة وتروض النفس على القناعة » .

وهناك فى قلب الوادى رأينا الخيـام مضروبة ، واحدة للأمير وأخرى للاجتماع ، وثالثة لموائد الطعـام ، فقد جلبوا الى الصحراء أدوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا ملعقة ، وقد عجبت لهم كيف اسـتطاعوا ان ينقلوها من غير أن تتحطم الآنيـة كلهـا !

وكان الأمير قد سبقنا ، والمكان قد ازدحم ، وحف ممثلو الدول بالأمير فجـاءونا بكراسى وصفوهـا أمامه فجلسـنا بينه وبين النـاس ، وبدأوا يلقون الخطب وينشـدون القصائد بين يديه ، يمتدحون فيها العهد السـعودى ويصفون ما بلغت البلاد فى ظله وبفضله ، وساءنى ان التلاميذ شجعهم أساتذتهم على المبالغة والغلو ، ولم ارتح الى سـماع كلمات « العلى والمجد والقمة والسنام » الى آخر ذلك مما زعم التلاميذ فى خطبهم ان الحجاز ارتقى اليـه ، وقلت لجـار لى ـ وأظنـه كان حجازيا ـ ان هذه المبالغات السخيفة هى داؤنا جميعا ، واننا جميعا ـ فى مصر والشام والعراق والحجاز الخ ـ أحوج الى مواجهة الحقـائق وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سـبقنا من الأمم ، وان من

الاجرام ان نخدع أنفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق ، ومن الجناية أن تنشئوا هؤلاء الأطفال على التوهم ان بلادهم بلغت أوج المجد وارتفعت الى قمة العلى وغير ذلك من الكلام الفارغ . وأنه أجدى عليكم أن يعرف كل امرىء مبلغ ما يطلب منه فى سبيل بلاده لتتهيأ نفسه لبذل الجهد الذى يحتاج اليه ، وضربت له مثلا فقلت انى قد أرى شيئا أتوهمه خفيفا فأمد اليه يدى لأرفعه وأنا غير محتفل ، ويتفق ان يكون ثقيلا على عكس ما تصورت ، فأعجز ، وأخسر وقتا وجهدا فى غير طائل، ولكنى ، اذا عرفت أنه ثقيل ، أشد أعصابى وأوحى اليها ان تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشىء الذى أريد رفعه او حمله ، فيجىء المجهود معادلا للمطلوب فأنجح ، وهكذا فى غير ذلك ، فى صغار الأمور وكبارها ، فلا تغشوا أنفسكم فان هذا شر ما تسيئون به اليها ، ولا تستهينوا بكلام تظنونه يذهب فى الهواء ، فانه لا يذهب فى الهواء بل يتقرر فى ثرى النفوس ويرسخ فى العقائد ويستكن فى ضمير الفؤاد من حيث لاتشعرون، واذا كان كل مرادكم ان تثيروا الشعور بالعزة القومية ، فان لهذا سبلا أخرى ، ولا خير على كل حال فى الفخر الأجوف .

وكان بين الشعراء رجل من الكويت ــ اذا كانت ذاكرتى لم تخفى ــ وشعره سخيف ولكن انشاده بديع

وقد كان وهو يلقى قصيدته الطويلة ــ يغنى ويمثل ، وأشهد أن صوته صاف خالص كصوت الفضة ، وأن غناءه بارع وخال من التخنث والتطرى ، وأن تمثيله حسن مطابق للمعانى مؤد لها على وجه الأحكام .

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من القائه ، فليته جاء قبل الكويتى ، ولكنه ابى الا أن يجىء قبل الطعام فكاد يصدنا عنه ويفتر رغبتنا فيه ، ويزهدنا فى الشعر والأدب والعرب ، بل فى الحياة نفسها فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من القائه ، وسأظل أستعيذ بالله منه كلما ذكرته فانه يفسد على نومى ويسود العيش فى عينى ، ويغثى نفسى ويكرب صدرى ، وقد ضرست أسنانى لما سمعت صوته ، وأحسست كأن الحكة قد شاعت فى جلدى ــ أعنى الجرب والعياذ بالله مرة رابعة منهما أعنى الجرب والصوت ــ وانى لأوصى الحكومة الحجازية أن تقطع ألسنة الشعراء النجديين اذا كانت أصواتهم منكرة كهذا الصوت ، فان البكم خير الف مرة ، وهذا الصوت ــ اذا كان له مشبه ــ خليق أن يغرى الخلق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية الى الانتفاض والثورة .

وقمنا الى الطعام بعد هذا البلاء الشعرى ، وكانت ألوانه ــ أعنى ألوان الطعام لا البلاء ــ مغرية ، وكانت الخراف الشهية فى الطشوت ، تخايلنا ، فسألت : هل

هى للزينة كما كانت فى مأدبة الكندرة أم للأكل ؟ فضحكوا وقالوا بل للأكل ، فالقيت السكين والشوكة ، وشمرت كمى ونهضت عن الكرسى وقلت لعبد من الواقفين :

« ارفع هذه الصحون من أمامى وافسح لذى القرنين ، فانى أراه لايزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسلخ والشيء والتحمير — هات عجل ، ياعبد الله « وليسامحنى الأمير ، فانى لا احب المغالطة » .

فلما فعل — أعنى العبد لا الأمير — دفعت يدى فى خاصرة الخروف فلم أكد أفعل حتى ندت عن صدرى صرخة من الطبق العالى الذى يوقظ الموتى فى قبورهم ، واذا بى أدور على عقبى ، وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة ، وفمى ينفخ ويقول « فو . فو . » من لسع النار التى فى خاصرة الخروف !

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شيء ! يجيئوننا أولا بهذا الشاعر النجدى ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى شبابنا — فقد كنا جميعا شبانا فى الحجاز حتى زكى باشا — ثم يثنون بهذه الخراف التى حشوا بطونها جمرا متقدا ، ويزعمون أنهم يطعموننا ويكرموننا ؟؟ لماذا اذن كانت ألوان الطعام الأخرى لا تلسع ولا تحرق ؟؟ أليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود ؟؟

ومال الأمير — بعد الطعام الى خيمته ليستريح ؛ وملنا نحن الى النخيل نحتمى فى ذراه من الشمس .

وارتمينا على الرمال وأشعلنا السجاير وذهبنا ندخن واذا بثلاثة من الجنود النجدية يجرون الينا واحدا بعد الآخر ويسألنا كل منهم بدوره .

« معك شيء من العكس ؟ »

فلم أفهم ما العكس الذى يطلبون شيئا منه ، وحسبتهم يعنون الدخان فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها وعادوا يسألون عن «العكس» هل معنا منه شيء ؟ فقلت لعله طعام أو شراب ، واشرت الى خيمة المائدة وقلت :

« هناك . لقد تركنا الخراف والله سليمة او كالسليمة ، فعليكم بها ان كنتم تعنونها والأمر لله . أما اذا كان شرابا ما تطلبون فهذا هو الماء يجرى عند اقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا منه » .

فمضوا عنى وهم يبتسمون وكانى كنت اخاطبهم باللغة الأردنية . وقد علمت بعد ذلك ان العكس معناه فى اصطلاحهم الصورة ، وكان الباعث لهم على طلب الصور منا ان رياض افندى شحاتة أعد نحو الف صورة — فى حجم بطاقة البريد — لجلالة الملك ابن السعود وفرق اكثر ما معه فى وادى فاطمة ، فتوهموا ان كل مصرى مصور ورياض أفندى أيضا ! وليتنى كنته ! اذن لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما أصبحت اتجشم تعب التسطير والتحبير ونفقات الطبع والنشر .

ثم عدنا الى خيمة الاجتماع وكانت غاصة ، ولم يكن الأمير قد حضر ، فطافوا علينا بأقداح القهوة فى قعورها رشفة ؛ فعدت الى الاجتماع وظللت أستزيد حتى فر الساقى واختفى . ولما جاء الأمير استؤنفت الخطب ودعى زميلنا خير الدين افندى الزركلى الشاعر السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به في يومنا — بل فى رحلتنا كلها — من الكلام الرصين الجيد ، فنهض أحد السامعين من البدو ، وقد طرب ، وخلع عليه سبحته ، وهم آخر أن يخلع عليه عباءته ، ولكن اخوانه — أعنى اخوان الزركلى .. خافوا اذا توالت الخلع ان ينوء بحملها فصدوا الناس عنه وحموه — هذا الأ .. أعنى الخير .

وانا لكذلك واذا بزكى باشا يدخل كالمدفع ، وصوته يسبقه ، ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم ، فصفق له الناس فوقف يعتذر فقال كلاما أرعبنا ، ذلك انه التفت الى الأمير وانطلق يقول ان أهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل ولكنه تبين أن هذا كذب ، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقه فيها ، فقد كان مستلقيا فى ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه .

وهنا وثب الناس الى أرجلهم ساخطين مستنكرين ، وقلت لجارى لقد خولط الرجل ! أما كان يستطيع أن

يسكت ؟ الا بد من أن يعلن ذلك على هذه الاملاء كلها ؟

ووجمنا ، ووددت لو أنى تأخرت ـ وأدركت زكى باشا قبل أن يدخل ، لأحمله على الصمت وأصده عن الكلام ، غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح الموضوع واذا كل ما يعنيه ان السيد عبد الوهاب محدث ظريف وانه سرق وقته وانساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه !

وقد عنيت بأن اذكر هذه الحادثة التافهة لأنى اريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة ؛ فانه بلا شك أبرع محدث وأظرف رجل عرفناه فى الحجاز ، وقد تعلم فى الآستانة وأتقن التركية والفرنسية فضلا عن لغته العربية؛ وعرف الأيام كما عرفها المتنبى ولكنه ظل مع ذلك رجلا عطوفا فيه رفق ورحمة ودماثة ومروءة ، وليس فى الحجاز من لا يأنس بمجلسه ويشتهى حديثه ، وهو على ظرفه وفكاهته كيس وقور ذو رأى انضجته السن والتجارب وفكر سددته المعرفة والاطلاع . ولو شئت لأطلت ولكن بحسبه هذا منى .

وأشير هنا الى حادثة أخرى لها دلالتها ـ ذلك ان عميد وزراء الدول فى الحجاز هو الوزير الروسى ، وقد كنت أحسبه صينيا فان به من أهل الصين مشابه . وقد وقف يشكر للأمير دعوته هو وزملاءه الى هذه الوليمة فى الصحراء ، وكان يتكلم بالعربية أو بما يظنه

لغة عربية ، ويرفع التشكر الى الأمير بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه ، ولم يطل فان من العسير أن يفيض المرء فى الكلام بلغة يخترعها على البديهة .

ولكن ممثل الحكومة البريطانية ـ القائم بأعمال مفوضيتها فى جدة ـ لم يرضه أن يكون ممثل الروسيا هو عميد الهيئة السياسية والذى ينطق بلسان أعضائها مخافة أن يتوهم العرب ان الروسيا مقدمة على انجلترا ومفضلة عليها ، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها ثم نهض فأعرب هو أيضا عن شكره للحفاوة التى لقيها والكرم الذى غمره ، وقد أشرت من قبل الى هذه المنافسة بين الروسيا وانجلترا هناك ، والحق انها كانت أحيانا تبدو لنا مضحكة ، أو على الأصح ممتعة .

ولكل شىء آخر ، حتى الخطب والقصائد ، وقد تنفسنا الصعداء حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا ايذان بالأوبة الى جدة ، والراحة ولكنهم خبأوا لنا مشهدا لا أحسبنى أنساه ما حييت ، فقد ساروا بنا بين النجد النظامية الى العراء ، وهناك وقف الأمير وأومأ الينا فدنونا منه ورأينا صفين من البدو النجديين ثيابهم شكول ، وأكثرها زاه براق ، وفى يسراهم البنادق وفى يمناهم السيوف مصلتة وبين الصفين أربعة يروحون ويجيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف ؛ وهو يطول ويقصر ؛ ويتثنى ويتعوج ، ويميل يمنة ويسرة ، ويقوم ويرقد

ويتمرغ على التراب ، والدف فى يسراه ، وفى اليمين عصا صغيرة ينقر بها ، والأربعة وراءه يترنحون ، والصفان على الجانبين بتوثبان ، والمسدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص فى الهواء ، والسيوف تلمع ، ومع ذلك كله غناء أو شدو أو تهريج لا أدرى ، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه ، وقد اذكرنى ما رأيت حلقات الذكر فى مصر ، ولكن الذاكرين فى مصر يلهجون بأسماء الله اما هؤلاء فقيل لى ان الغرض من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال .

قالوا ، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها ، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و « حرامه » ورمى بهما فى الهواء ورماهما برصاصة وتركهما يهبطان الى الأرض ، وقيل لى فى تفسير هذا ، ان يخلع عليه الأمير جديدا عوضا عن القديم الذى اطلق فيه الرصاص ويبقى العقال ملقى على الأرض حتى يقول له الأمير ارفعه عنها وهذا عندهم وعد — غير قابل للاخلاف — بان يخلع عليه سواه .

وظللنا هكذا لا أدرى كم ! واحر بنا أن لا نحس كر الوقت ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص ينطلق أمامنا وفوق رؤسنا ، ولا أكتم

القارىء أن الخوف لم يفارقنى لحظة ، وانى لم أذهل عن نفسى ثانية واحدة ، واعترف انى كنت أخشى أن يصيبنى سوء ـ أعنى رصاصة وأشهد لنفسى بالأدب فقد كنت لا أزال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لى مكانا الى جانبه فى الصف الأول أؤكد له أنى أستطيع أن أرى من تحت ابطه ، وانى لا أقبل فى حال من الأحوال أن احاذيه أو أرفع نفسى الى مقامه ، فكان يشكر لى تواضعى ويؤكد لى انه سعيد بجيرتى ، وأنه معجب بذلاقة لسانى وقدرتى على الرطانة ، فكنت أقول له :

« يا سيدى الوزير ، انى عربى الأصل فى الحقيقة وهذه البلاد بلادى فى الواقع ، فأنا لست هنا ضيفا ولا يجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه » .

وأتراجع خطوة ، وأجعله أمامى ، واتخذ منه ـ بهذه الحيلة ـ مجنا دون الرصاص الذى اتفى أن يصيبنى ، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلت له « ان انجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فان انجليزيا يروح وآخر يجىء ، وليس الذاهب بأفضل من الآتى ولكنه ليس فى مصر ـ ولا فى جزيرة العرب على مابظهر ـ سوى مازنى واحد ، وهذا غريب ، فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى ، ولكنى لم أسمع ان واحدا من بنى مازن انحدر الى الحجاز لهذا الغرض ، وأسر اليك أنى أخشى أن يكون ابن السعود قد فتك بهم » .

فدهش وقال لماذا ؟

فخفضت صوتى جدا ، وشببت عن الأرض لأهمس فى اذنه « ان قومى عفا الله عنهم ـ من أهل التخفيف »

قال « ماذا نعنى ؟ فانى لا أفهم » .

قلت « اعنى انهم من ذوى المروءات » .

وقال « وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوى المروءات ؟ » .

قلت « ان ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة »
قال كيف ؟ لماذا ؟

« قلت ان اللغويين أعداء قومى ـ الد أعدائهم ـ يسمون المروءة قطعا للطريق ، والتخفيف عن الناس سطوا عليهم . وابن السعود وهابى أى على مذهب اللغويين ـ سوء تعبير او خطأ فى الوصف كما ترى . واخشى ان يكون قد جر على قومى وبالا فهل لك فى حلفى ؟ » .

قال « حلفك ؟ » .

قلت « نعم . تحالفنى على ابن السعود . اذا ثبت انه أوقع بهم » .

فالتفت الى بسرعة وقال « أتتكلم جادا ؟ فلست أكتمك انى مستغرب حديثك وانى لا أكاد أفهم شيئا ! »

وهنا أدركنا واحد فوضعت أصبعى على فمى ، ولكن « الواحد » لمحنى فقال للوزير .

« أنا واثق أن حديث المازنى قد حيرك » .

فقال الوزير ــ أو القائم بأعمال الوزير على الأصح ــ « هذا صحيح . لقد كاد يجرنى الى حرب ابن السعود، من أجل قضية لا أفهمها » .

فقال « الواحد » ــ « ألم أقل لك ؟ فماذا كان يقول ؟ » .

فتركتهما يتذاكران وارتددت الى زملائى فصاحوا بى :

« يا أخى أين كنت ؟ »

قلت « لماذا ؟ الست أمامكم ؟ »

قالوا « ان الأمير قد تفضل ودعانا الى خيمته ليودعنا على انفراد ، ولنا ربع ساعة نبحث عنك » .

قلت « حسنا فعلتم . تفضلوا » .

وسرت أمامهم الى الخيمة ثم تنحيت لزكى باشا فان شيبته أضوأ من شيبتى ، وأنا رجل لا يكابر فى الحق ، فتلقانا الأمير ــ ومعه فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية ــ بالتأهيل والترحيب ، وأعرب عن

سروره بزيارتنا للحجاز ويقينه انها ستؤدى الى توثيق العلاقة بين الشعبين الشقيقين .

فقال زكى باشا ان العادة تثبت من مرة واحدة فقال سموه انها لكذلك ، وانى لأرجو أن اراكم فى كل عام على الأقل مرة .

وذكر بعضنا المدينة وانه يحب زيارتها ، فقال سموه ان الأمر فى ذلك لكم ، فاذا شئتم أن تتخلفوا أياما أخرى فان الزيارة سهلة ، ولكنها تكون شاقة ومتعبة اذا أردتم تدركوا الباخرة التى تبارح جدة يوم السبت ، فاختاروا ما شئتم .

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتذرنا بان أعمالنا فى مصر لا تسمح لنا بطول التغيب ، ورجونا أن تتاح لنا فى العام المقبل فرصة العود الى مثل هذه الزيارة ، وافضنا فى الاشـــادة بما شاهدناه من دلائل التقدم وامارات الاخلاص فى ترقية الأحوال وتحسين الشـــئون وقلنا ، وقيل لنا كلام كثير نسيت اكثره ثم تفضل سمو الأمير فخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض أفندى حافين به .

ثم ســـلمنا وعدنا الى جدة . وكان هذا ختام الحفلات الرسمية .

فى بيت العوينى

فى بيت العـوينى ، عرفت العـوينى ، أعنى انى استطعت أن ألم بطرف من الصفات والخلال التى أعانته على التوفيق فى حيـاته ، وهو على ما علمت من أسرة ســـورية وكانت له تجارة رابحة ، فلما قامت الثورة السورية أمدها بشبابه وماله وتدبيره ، وكان اشبه بزعيم محلى ، فقبض على طائفة من رجاله ، قال محدثى — والعهدة فى الرواية عليه — فأصبح يوما فاذا نســـاء الحى يصرخن ويولولن ويندبن ويصحن « يخرب بيتـــك يا عوينى » .

فخيف أن يفضى ذلك الى اعتقال البـــاقين والى احباط التدبير كله ، فتولى العوينى الانفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء — أمهاتهم وزوجاتهم واخواتهم الخ واحكم أمره وسارت الأمور على خير ما يرجى فى مثل

هذه الأحوال . وكانت الأسرات التى اضطر أن يعولها كثيرة وفقيرة . فأرقته واستنزفت موارده فلم يسعه الا أن يصفى تجارته ـ أو ما بقى منها ـ وأن يرحل .

فقصد الى الآستانة وفى مأموله أن يبدأ حياته من جديد ومكث هناك شهورا ثم ألفى نفسه ينفق ولا يربح فاحتمل حقائبه ومضى الى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سورى كبير ، وظل كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن ينشىء لنفسه تجارة مستقلة .

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار فاذا جاء يوم الجمعة انقدوه أثمان ما باعهم ، وقد أخبرنى محدثى ـ ولى به ثقة ـ أن متوسط ما يجمعه من التجار فى كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف جنيه : لا أدرى كم يكون ربحه منها ، وقد ذكرت ذلك لأعين القارىء على تصور مبلغ النجاح الذى أحرزه والذى يستحق أضعافه ، لنشاطه ودؤوبه وكده ، وقد كنا نفتح عيوننا فى الصباح ونتثاءب ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بذلته « الأفرنجية » ولا ينقصه الا أن يضع على رأسه الحرام الحريرى الأبيض ، والعقال .

ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج الى عمله قبل ذلك بساعات ، ولكنه كان مضطرا أن يتأخر حتى يفطر معنا ، وكنت أعجب بلباقته وكياسته وحذقه

في حثنا على النهوض والافطار من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله وأنه يريد أن يخرج ليباشره .

وكان العويني يبدو لنا كأنه كل شيء : الحكومة والرعية جميعا ، فهو الذي يعهدون اليه في تنظيم كل أمر ويكلون اليه الاشراف عليه ، ويعتدونه مسئولا عنه فما احتجنا الى شيء الا قلنا أين العويني ؟ ولا ارادت الحكومة شيئا الا قالت : هاتوا العويني ، ولا ناقة له في ذلك كله ولا جمل ، ولكنه النشاط وحسن التدبير والسرعة الرائعة في انجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر .

وكان يساكنه شاب آخر في مثل سنه أو أقل — بل هو أصغر على التحقيق — اسمه ابراهيم أفندي شاكر حسبناه أول الأمر أخاه ثم عرفنا انه صديقه ووكيله ، وهو حجازي صميم كان سكرتيرا خاصا للملك السابق علي بن الحسين ، وابراهيم أفندي كصاحبه العويني في النشاط والرقة ، ولكنه ساكن وادع الطائر طويل الصمت ، يمر بك كالنسيم الواني ، والنظرة الى وجهه تنعش الروح وتحيي النفس ، والجلوس معه يشيع في صدرك الطمأنينة والاحساس بالراحة التامة ، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون الا مفتر الثغر .

وفي بيت العويني أيضا كان من حظي ان عرفت

خالد بك الحكيم ، وكان يلبس جبة وقفطانا ، وعلى رأسه الحرام والعقال ؛ وهو رجل ضخم عليه مهـــابة ووقار ، وفى عينه التماع عجيب ولحديثه سحر ، وهو سورى من كبار المجاهدين ، تخرج فى المدرســـة الحربية فى الآستانة وخاض حروبا شتى فى أوربا وآسيا وافريقية — طرابلس — وكان مع جيش ابن السعود الذى فتح الحجاز ، ويســـمونه « الغطاس » لأنه يكون اليوم معك وتفترقان على أن تلتقيا غدا ، واذا به غدا فى الشام أو اليمن أو بمباى ، ولا يدرى سواه اى طريق ســـلك ، ولا علم لأحد بما كان ينوى ، وهو بكل بلد أعرف من اهله وانفذ بصيرة فى حاضره ومستقبله ، والعشرة من امثاله يعادلون أمة ، ولقد لقيته بعد ذلك فى مصر فما ازددت الا اكبارا له وايمانا به ، اكبارا لقوته الصامتة وجلده على الحيـــاة وتواضعه المحبب واخـــلاصه وصراحته ، وايمانا بعظمة روحه .

وفى بيت العوينى جاءتنا هـــدايا الأمير ، وكان صديق لنا قد أسر الى اننا سنتلقى هدية فسألته عنها اى شيء هى ؟ قال عباءة وعقال وما الى ذلك ، فقلت اذا كانت هذه هى الهدية فمرحبا بها وليعجلوا ، فسألنى « واذا كان هناك غيرها ؟ » .

قلت « ماذا تعنى ؟ » .

قال « أعنى ان من عادة العرب اذا حل بهم ضيف ان يهدوا ويهبوا ويصلوا » .

قلت « ان من المعقول أن تكون هذه عادتهم . فان البدوى فى الحقيقة فقير معدم ، وطلبته الطعام والكسوة والمال ، فطبيعى أن بكرم العرب الضيف أى أن يطعموه ويكسوه ويصلوه ، ولكنا لسنا بدوا - وانى لأشتهى أن تكون لى عباءة وعقال ، ولكن هذا ليس لأنى عار مفتقر الى الكسوة بل لأنى أعتد هذه الثياب قنية تستحق أن تدخر ، أما الصلة أى المال فبالله عليك الا ماصرفتهم عنه ، لئلا يحرجونا ويحرجوا انفسهم ، فانى لا أرضى ان آخذ مالا لا أستحقه ثم انى استحى أن أرد عطاء أمير ، ولكنى سأكون مضطرا أن أرده لأنه لا يسعنى الا أن أعده فى مثل هذا الموقف رشـــوة أربأ بنفسى وبالحـــكومة السعودية عنها ، وقد بالغت الحكومة فى اكرامنا وانفقت على رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت عنا حتى اجور التلغرافات التى بعثنا بها الى صحفنا ، وهذا كله فوق الكفاية ، ثم ان ما شاهدناه كان له وقع جميل فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع بالرشوة ، وانا مقترح عليك بديلا منها : فانى أشتهى بلح المدينة ، المشهور ، فاذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتليفون لترســـل الينا فى ينبع قليلا من البلح ، فان هذا يكون خيرا من كل مال » .

وقد استشار صاحبى زميلا آخر لى فنصح له بمثل ذلك ، فعاد اليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال ، وعلى الاكتفاء بالكسوة العربية والبلح - والكسوة

عبارة عن معطف مصنوع من الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما لا أدرى وعقال من الحرير مفضض وحزام من الكشمير ، وقطعة من السكرودة . وقد احتجت ان أقصر هذه الثياب لأستطيع لبسها والانتفاع بها .

وفى ينبع ونحن عائدون ابى الأمير الا أن يستقبلنا كانا كنا مثله أمراء — فى سرادق عظيم القيت فيه الخطب وأنشدت القصائد ، ثم تغدينا وأكلنا خرافا حقيقية لاشك فيها ولا فى رؤوسها ولا فى امخاخها ، وبلغ من حفاوتهم بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون خدمتنا على على الطعام .

ثم عدنا الى الباخرة حيث وجدنا بلح المدينة فى « صفائح » بعددنا ، بل بأكثر من عددنا ، ففرقنا مازاد واحتفظنا بانصبتنا ، ورسونا فى الطور ساعات وطفنا به وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات الوافية ، ثم عدنا بسلامة الله .

ولكن رحلتنا ونحن عائدون وكانت فاترة فقد كان ينقصنا نبيه بك العظمة وخير الدين أفندى الزركلى ، فقد تخلفا فى جدة .

خاتمة

العرب امتان فى أمة ، أو هم على الأصح ثلاث أمم : واحدة تعيش فى الحواضر على نحو ما تعيش أمثالها فى كل بلاد العالم وهذه خليط من شعوب شتى ، فيها المصرى والسورى والفارسى والهندى والجاوى الخ ، وقد لقيت فى جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم فى مصر أقارب ومصالح وأملاك ، وحدثنى كبير فى الحكومة السعودية انه عنى بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالى فعرف نحو مائتى أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب ، ولكن الشبان المصريين هناك قليلون ، وهم فى حكومة الحجاز يعدون على الأصابع ؛ ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين ، وهم أقرب الى بلاد العرب وأوثق بها صلة — زاحموهم فغلبوهم ، وللسوريين آمال قومية يعتمدون فى تحقيقها — فى جملة

ما يعتمدون عليه – على السعوديين ، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم فى معاهد الآستانة وشردتهم عن سوريا الأحوال السياسية ، ودفعت بهم مساعيهم القومية الى الصحراء. وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين ، وانما هم من ذوى الصلابة وأولى العزم والقوة فلا بدع اذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا فى السنوات الأخيرة فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم ، ومصر ارقى حضارة من سورية ، والترف فيها أوفر والحياة فيها أنعم ، ولهذا كان السورى لا يحس فى الحجاز انه نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لا يجد هناك ما خلفه فى وطنه من المناعم والملاهى ، على انى لست فى مقام التقصى للأسباب التى أدت الى ضعف العنصر المصرى فى الحكومة الحجازية وانما أردت بما ذكرت أن أبين ان لهذا أسبابا معقولة . والأمة الثانية : القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة الى حد ما ، وبالرعى وبقليل من الصناعات الساذجة ؛ ومواطن هذه القبائل ثابتة . ومحلاتها وعشائرها وبطونها وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم – ومن هذه تخرج أمة ثالثة هم البدو الرحل الذين لا يستقرون فى مكان ولا يزالون يتحولون من هنا الى هناك .

وقد أدرك ابن السعود بفطرته الزكية ان هذه

البداوة هى آفة الأمة العربية وعلمته التجارب ان البدو لا خير فيهم فى حرب ولا فى سلم . فهم فى الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقعة السـلاح أو صوت الرصـاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما اليها ليغنموها ، ومن أجل هذا كان يعتمد فى حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو فى المعـارك ويضع جيشه النظامى وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة . أما فى السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صـناعة أو زراعة . ومادام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها الى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر فى مكان . ولهذا فكر فى تحضـيرهم واخراجهم من هذه البداوة فانتقى لهم المواقع التى يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له أن يجعـل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وان يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وان يعلمهم ويثقفهم . وتسمى هذه المواقع التى اختارها لهم وألزمهم الاقامة بها والعمل فيها « الهجر » بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذاك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها .

وعلى هذا النحو العملى يحل ابن السعود مشاكله العديدة ، فالحجاز مثلا ــ على حضارته نسبيا ــ صحراء

جرداء ، والماء أكبر ما يحتاج اليه وأول ما ينقصه ، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف ــ كل بدوره ــ وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفى جدة ، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر واشترت أخيرا آلة كهذه لجدة تقطر في اليوم مائة وخمسين طنا من الماء ، وأصلحت الصهاريج التى يخزن بها مياه الأمطار ، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التى سددت أو خربت ووجدت ان الآبار قليلة الغناء لانها تجف وتنشف فى بعض الفصول فاتخذت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض ، ومما يذكر فى هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التي يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها . غير أن معداتهما لم تكن كافية ، فعادا ، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجح أن يكون اختيارهما ممن لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين . وعملت الحكومة على اصلاح عين زبيدة بانشاء خزان ومد انابيب ، وهى تبنى خزانا كبيرا آخر لجمع مياه المطر يسع مائة الف طن ، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته فى مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة لا تدعو الى البناء الا من ناحية واحدة .

ومن أجل الماء تعفى الحكومة كل الآلات التى تتخذ

لاستنباطه من الرسوم الجمركية . وكذلك آلات الزراعة . بل هي تقسط أثمانها على الأهالي تشجيعا ومعاونة لهم . ومن اجل الماء تعنى بالتعليم الهندسي ، ولذلك أرسلت الى الآستانة طالبا يتعلم الهندسة ، وبعثت الى برلين بآخر . والحجاز كمصر ينبغي أن يكون بلاد الهندسة والمهندسين البارعين .

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة . فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة يملكها الملك حسين السابق ، وفي الحجاز الان ألف سيارة ومائتان . والبريد ينقل بين جدة ومكة . وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين في اليوم . والشرطة يتخذونها للمرور والعسس ، والجند كذلك للانتقال والحمل . وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد . ولا بد لذلك كله من الأمن والا فسد الأمر كله . ومن هنا قسا ابن السعود في أول الامر فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقطاع الطرق . وادب العشائر التي تسطو على الحجاج ، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة . وقد رأيت بعيني رأسي شواهد رائعة وأدلة مدهشة .

ومن أجل طول المسافات وتقاذف الأبعاد أتخذت الطيارات واللاسلكي فضلا عن التلغراف السلكي المعتاد ،

وللاسلكي الآن أربعة عشر مركزا ٠ وقد انشأت الحكومة مركزا جديدا فى جزيرة دارين ٠ وهم ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتلغراف والتليفون اللاسلكى وذلك لوصول الرياض ومكة والمدينة وكل مركز فى الألوية والأقضية ٠

ولم يتخذوا القطر البخارية لأن تكاليفها باهظة لاتقوى عليها الميزانية ٠ ولانهم من ناحية أخرى يحرصون على أن لايقطعوا أرزاق الجمالة على انهم فكروا فى انشاء خط كهربائى بين جدة ومكة وأصلحوا الطرق وعبدوها وكبسوها بواسطة « وابور الزلط » كما نسميه فى مصر ٠

ومن أجل الحج واتقاء لتفشى الأمراض انشأوا فى مكة مستشفى يسع مائتى مريض وجعلوا فيه أقساما للجراحة والأمراض الباطنية وغير ذلك ؛ ولهم الآن عشرون طبيبا حجازيا ٠ وأقاموا محطة للحجاج فى بحرة بين جدة ومكة وفيها مستشفى ، فضلا عن المحطات الأخرى للراحة ٠ وأصلحو الكرنتينة ورتبوا دوريات صحية وبنوا المظلات فى عرفات ومنى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا فى كل منها طبيبا وممرضا ٠ والحكومة تلقح الناس ضد الجدرى ٠ وقد أنشأت معملا للحصول على مصول الجدرى والكوليرا والتيفوئيد ٠ وأرسلت بعثات طبية للخارج ٠ واستعارت طبيبا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة ٠

وقد حقنا بمصلى الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من

السويس ، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك • على الأقل في هذه الأيام • وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات أن الحج نظيف •

أما من حيث التعليم فللحجاز بعثة في مصر مؤلفة من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا فضلا عن البعثات الهندسية والطبية التي أشرنا اليها • وقد أنشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية في جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها ومدرستين ثانويتين في مكة وأخرى في المدينة • وأربعة في جدة • وهذا غير المعهد السعودي في مكة وغير مدرسة المطوفين التي أنشأتها ـ كما أنشأنا في مصر مدرسة الأدلاء والتراجمة ، وغير المدارس الدينية التي لاتعد مدارس حديثة •

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشاكل بلاده ؛ ويعالج ترقينها وقد تبدو الخطى قصيرة ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها • والمال هو العقبة الكبرى ولكن الحكومة لاتتعجل ولا تذهب الى اثقال كاهل الناس بالضرائب من أجل ذلك ، وشعارها ، أن العجلة من الشيطان. ولكن خطاها وطيدة مستمرة. كخطى السلحفاة التي سبقت الأرنب ، والأرنب عندي هو مصر • ولقد عدت من الحجاز وأنا مقتنع بأن مصر اذا ظلت تتخبط وتولى الشئون السياسية هذا الحظ الباهظ من رعايتها على حساب المرافق الجدية والمراشد الحيوية . فستسبقها الحجاز بلا أدنى ريب •

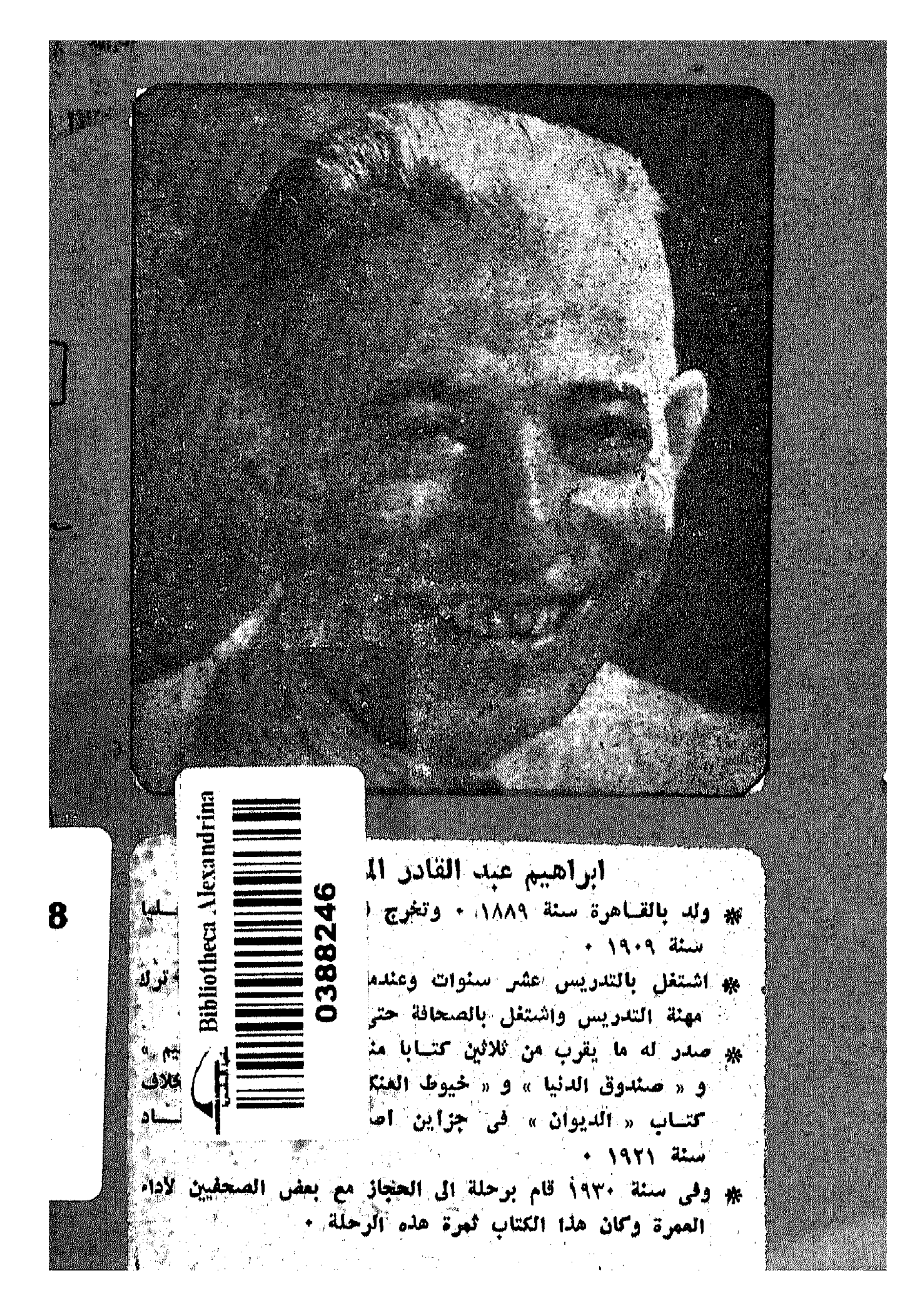

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٥٠١٥





8

ابراهيم عبد القادر المـ

* ولد بالقاهرة سنة ١٨٨٩ ، وتخرج ... ـليا سنة ١٩٠٩ .
* اشتغل بالتدريس عشر سنوات وعندما ... ترك مهنة التدريس واشتغل بالصحافة حتى ...
* صدر له ما يقرب من ثلاثين كتابا مـ... ـيم » و « صندوق الدنيا » و « خيوط العنكـ... ـلاف كتاب « الديوان » فى جزاين اصـ... ـاد سنة ١٩٢١ .
* وفى سنة ١٩٣٠ قام برحلة الى الحجاز مع بعض الصحفيين لأداء العمرة وكان هذا الكتاب ثمرة هذه الرحلة .